بودوسيتنيك وسبيركين

■

عرض موجز للمادية التاريخية

■

دار التقدم
موسكو

تنبيه هام:

يشتمل هذا الكراس على بعض الفقرات التحريفية التي تعبر عن افكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة. و سعيا لتحقيق اقصى فائدة من هذا الكتيب المدرسي، وحفاضا على نقاء الماركسية – اللينينية الثورية، قمنا بحذف هذه الفقرات حيث تظهر على شكل فراغات في الصفحات، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢ او صفحات فارغة بالكامل كما في الصفحات ١٠٢، ١٠٣، ١١٨ من النسخة الورقية.

وفي السياق نفسه تم اعادة صياغة السطر الثامن –من الاعلى الى الاسفل– في الصفحة ١٠٥ من النسخة الورقية (والذي يظهر في هذه النسخة الالكترونية على هيئة السطر الخامس، من الاعلى الى الاسفل، في هذه الصفحة) وتحويره بما يتفق مع تعاليم الثورة.

لذا اقتضى التنويه .

الصوت الشيوعي

المقدمة

ان سير تاريخ المجتمع الدائب قد غير سيماء العالم: ثلث البشرية يبني الآن الاشتراكية والشيوعية. وتساقطت الامبراطوريات الاستعمارية التي كانت قوية فيما مضى. وتناثرت حطاماً نظم قدّستها القرون. واختفت من وجه الأرض دول كثيرة وولدت عشرات دول جديدة. في مجرى الحياة الاجتماعية تظهر وتتصارع الافكار التقدمية والرجعية، الطليعية والمتخلفة، الصائبة والخاطئة. وتتناطح كثرة لا تحصى من الاهداف والمصالح الشخصية والطبقية، القومية وما بين الدول. يموج بحر الرغبات البشرية — السامية والسافلة، النبيلة والكريهة، ويهدر سيل العواطف المتناقضة من الحب والحقد، الخير والشر.

فهل يمكن العثور في هذا التعاقب للحوادث المنفصلة على نظام أو اتجاه؟ ان حياة البشرية المتعددة القرون، والعلم اظهرا أنه في الحياة الاجتماعية تعمل قوانين موضوعية أي مستقلة عن ادراك الناس وارادتهم، تلك القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية. والبشر يستطيع معرفة قوانين التطور الاجتماعي واستخدامها لصالحه.

وعن سؤالنا: ما هو المجتمع البشري وما هي قوانين تطوره وكيف تعرف وتستخدم في نشاط الناس العملي تجيبنا الفلسفة الماركسية-اللينينية — ذلك القسم منها الذي يسمى بالمادية التاريخية.

ومثلما تدرس فروع العلوم الطبيعية المتعددة الطبيعة وموادها المتنوعة وحوادثها وعلاقاتها، تدرس المجتمع الانساني علوم اجتماعية كثيرة: الاقتصاد السياسي وعلم الحقوق والتاريخ وعلم الاجناس (الاثنوغرافيا) وعلم اللغة وهلم جرا. وكل علم اجتماعي يدرس جانباً ما واحداً فقط من الحياة الاجتماعية. ومع أن العلوم الاجتماعية في مجموعها تتناول كل

جوانب الحياة الاجتماعية الا ان تجميعاً بسيطاً لهذه المعارف لا يعطي صورة عن المجتمع ككل، ولا عن التأثير المتبادل بين جوانبه كلها. وذلك لأنه الى جانب فعل القوانين الخاصة بتطور الاقتصاد والسياسة واللغة وما شاكل ذلك تعمل القوانين العامة الشاملة في تطور المجتمع ككل. وهي لا يدرسها أي علم اجتماعي منفرد. والحال انه بدون معرفة هذه القوانين العامة التي كأنما تربط جميع جوانب الحياة الاجتماعية في وحدة واحدة لا يمكن فهم العلاقات المتبادلة بين الجوانب المختلفة لحياة المجتمع ومكان هذه الظاهرة أو تلك في نظام هذه الوحدة.

توجد في المجتمع ظواهر مادية وفكرية، وكيان اجتماعي ووعي اجتماعي. وبينهما توجد علاقة وارتباط تلعب دراستهما دوراً هاماً جداً في تفسير القوى المحرّكة للتطور الاجتماعي. ومع هذا فليس هناك علم اجتماعي منفرد واحد يهتم بدراسة خاصة لعلاقة الوعي الاجتماعي بالكيان الاجتماعي. وبدون الحل الصحيح لمسألة علاقة الوعي الاجتماعي بالكيان الاجتماعي لا يمكن تكوين

اسلوب علمي لمعرفة اية ظاهرة اجتماعية ولا يمكن ايجاد طريق تحويل ثوري للحياة الاجتماعية لصالح الشعب. لذلك لا بدّ من نظرية عامة واسلوب معرفة ظواهر الحياة الاجتماعية. هذه النظرية وهذا الاسلوب هما المادية التاريخية. فأي علم هذا؟ المادية التاريخية علم فلسفي عن علاقة الوعي الاجتماعي بالكيان الاجتماعي؛ علم عن القوانين العامة الشاملة والقوى المحركة لتطور المجتمع؛ هي نظرية عامة واسلوب لتحويل المجتمع ومعرفته معرفة علمية.

المادية التاريخية هي من ابداع ماركس وانجلس. فهما اوجدا المادية التاريخية في ارتباط وثيق بالمادية الدياليكتيكية كنظام متلاحم للمفهوم العلمي عن العالم وكأسلوب معرفة العالم وتحويله تحويلاً ثورياً.

المادية التاريخية تعني تطبيق كل الموضوعات الرئيسية للمادية الدياليكتيكية على الحياة الاجتماعية. الوحدة المتماسكة للمادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية تجعل من فلسفة الماركسية مادية ملتحمة ومنطقية. قبل ماركس وانجلس سادت المثالية الآراء

في الحياة الاجتماعية. فمثلاً، كان مفكرو القرن الثامن عشر الفرنسيون، رغم انهم كانوا ماديين في تفسيرهم لظواهر الطبيعة، ينظرون الى التاريخ بعيون المثاليين. فهم لم يستطيعوا الخروج من «الحلقة المفرغة»: الاخلاق تحدد نظام الدولة، وهذا الاخير يحدد الاخلاق. وفي نهاية الحساب استنتجوا ان العقل البشري يوجه التاريخ.

ورأى هولباخ، مثلاً، انه يكفي ان تدور في رأس الملك خاطرة لكي يستطيع هذا الأمر أن يؤثر تأثيراً هائلاً في مصائر الشعوب. كتب هولباخ: «زائد من الحقد عند متعصب أو فوران الدم في قلب الفاتح أو سوء الهضم عند ملك ما أو نزوة امرأة ما، تكون اسباباً كافية لحتمية شن الحروب ولارسال ملايين الناس الى المجزرة ولهدم القلاع واحالة المدن الى حطام ولاغراق الشعوب في الفقر والحزن ولاثارة الجوع والاوبئة ولاشاعة اليأس والمسكنة لقرون طويلة».

مثل هذه الآراء في الحياة الاجتماعية ترينا ان كثيراً من مفكري الماضي لم يفهموا، وان العلماء

البرجوازيين لا يفهمون الآن أيضا القوانين الموضوعية للظواهر الاجتماعية وعزوها ويعزونها الى الصدف المحضة.

وما كان المفكرون قبل الماركسية يحاولون على طريقتهم تفسير ماضي وحاضر البشرية وحسب بل جربوا كذلك التطلع الى المستقبل.

وقد وجّه الاشتراكيون الطوبائيون الذين عاشوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر نظرهم الى المستقبل قبل غيرهم. فهم نقدوا بعمق وسطوع تناقضات الرأسمالية وأوصوا بضرورة استبدالها بالاشتراكية والشيوعية. ورأى الطوبائيون سبب بؤس الشعب في الملكية الخاصة التي – في رأيهم – تباعد بين عقول الناس وتكون السبب الدائم لظهور البغضاء في المجتمع ومنبع الخداع والغش بين الناس وسبب الحروب في كل العصور السالفة.

وقد ابدى الطوبائيون كثيراً من الآراء الثمينة حول المجتمع الشيوعي المقبل. الا ان الاشتراكيين الطوبائيين لم يروا وما كان في امكانهم ان يروا آنذاك القوة

القادرة على ان تكون خالقة المجتمع الجديد. فهم لم يجدوا الطريق الصحيح نحو الهدف المرتقب، لأن الظروف التاريخية التي عاشوا فيها لم تنضج بعد لذلك.

ومأثرة ماركس وانجلس التاريخية العظمى هي في انهما ازاحا المثالية عن العلم الاجتماعي، ولاول مرة في التاريخ اعطيا حلاً مادياً للمسألة الفلسفية الرئيسية المطبقة على المجتمع. وعلى نقيض الفهم المثالي لتاريخ المجتمع برهنت الماركسية على ان وعي الناس ليس هو الذي يحدد كيانهم وانما العكس فالكيان الاجتماعي هو الذي يحدد وعي الناس.

ان العمل وانتاج القيم المادية هما ما يكوّن اساس حياة الانسان والمجتمع واساس تطورهما.

ان العمل جعل من اسلافنا بشراً وهو كذلك الظرف الحاسم لحركة المجتمع الى الأمام. وقد كتب انجلس اذ بيّن جوهر الفهم الجديد المادي للتاريخ: «مثلما اكتشف داروين قانون تطور العالم العضوي، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري، تلك الحقيقة البسيطة التي ظلت حتى زمن غير بعيد مختفية

تحت ركام المثالية، الا وهي ان الناس يحتاجون قبل كل شيء الى ان يأكلوا وان يشربوا وان يملكوا مسكناً وان يلبسوا قبل ان يكونوا قادرين على ممارسة السياسة والعلم والفن والدين والخ.، وان انتاج الحاجيات المادية الحياتية المباشرة وكل درجة معينة من التطور الاقتصادي لشعب أو لعصر يكوّنان بالتالي الاساس الذي تقوم عليه وتتطور المؤسسات الحكومية والمفاهيم القانونية والفن وحتى الافكار الدينية لاولئك الناس والذي يبنى عليه لهذا السبب تفسير هذه كلها — لا العكس كما حدث ذلك حتى الآن» * .

ان الشعب هو الذي حقق قبلاً النشاط العملي ويحققه الآن. ولذلك فان خالقي التاريخ الاصليين ليسوا قوى ما سماوية خفية ولا القياصرة ولا القادة ولا المشرعين وانما الجماهير والطبقات. ولفهم سير التاريخ لا يجب الانطلاق من نشاط شخص واحد وانما من عمل جماهير الشعب وطبقات المجتمع.

---

* ك. ماركس و ف. انجلس. المؤلفات المختارة في مجلدين. م. ٢، ص ١٥٧. (الطبعة الروسية).

وقد عمّم ماركس وانجلس المادية على فهم الحياة الاجتماعية وبهذا حققا انقلاباً في علم الاجتماع.

كتب لينين واصفاً جوهر الانقلاب الثوري الذي حققته الماركسية في الآراء الاجتماعية: «على اثر البلبلة والاعتباط اللذين كانا سائدين حتى ذلك الحين في مفاهيم السياسة والتاريخ، جاءت نظرية علمية روعة في التناسق والتجانس والانسجام، تبين كيف ينبثق ويتطور، من شكل معين من التنظيم الاجتماعي، ومن جراء نمو القوى الانتاجية، شكل آخر، ارفع، — كيف تولد الرأسمالية من الاقطاعية، مثلا» *.

وقد وضع ماركس وانجلس حين كشفا عن القوانين الموضوعية لتطور المجتمع نظرية الاشتراكية العلمية. فاثبتا ان الاشتراكية ليست اختراعاً وانما نتيجة طبيعية لتطور المجتمع الرأسمالي، وان نمو الرأسمالية يهيئ هلاكها. واوضحا دور البروليتاريا العالمي التاريخي،

---

* لينين. «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٩٠.

وبرهنا على ان الطريق الى المجتمع الجديد يمتد عبر الاطاحة الثورية بالرأسمالية.

ومع تطور المجتمع وتراكم المعارف الجديدة يحصل فيه تطور المادية التاريخية ايضاً. وقد قدم لينين نماذج بديعة لمثل هذا التطور للمادية التاريخية. وفي عصرنا نجد استنتاجات الظواهر الجديدة في حياة المجتمع في الوثائق البرنامجية للحركة الشيوعية العالمية.

الفصل الأول

الطبيعة والمجتمع

ما هو المجتمع

المجتمع هيئة اجتماعية معقدة يكون تنظيمها الداخلي عبارة عن مجموعة روابط وعلاقات اقتصادية واجتماعية وعائلية وفكرية متنوعة، تلك التي تقوم في نهاية الحساب على العمل البشري. والمجتمع يتكون من الناس الذين يحققون الانتاج المادي والروحي ومن العلاقات الانتاجية والاقتصادية والاجتماعية التي تتشكل على اساس هذا الانتاج والتي تتضمن العلاقات الطبقية والقومية والعائلية؛ ومن العلاقات السياسية واخيراً من المجال الروحي من حياة الناس اي العلم والفلسفة والفن والاخلاق وهلم جراً.

ليس هناك مجتمع بشكل مجرد كما انه ليس هناك انسان بشكل مجرد، وانما اشكال معينة ملموسة لتنظيم

الناس اجتماعياً، مثلاً: مجتمع اشتراكي ومجتمع رأسمالي ومجتمع اقطاعي وهكذا. وبغض النظر عن كل الاختلافات بين المجتمعات المعينة فلدى كل مجتمع خصائص تميزه عن قطيع الحيوانات وعموماً عن كل ما ليس بمجتمع.

التفاعل بين الطبيعة والمجتمع

قد يخيل ان لا ابسط من نسبة بعض الاشياء الى الطبيعة والبعض الآخر الى المجتمع. ولكن الأمر في الواقع ليس بهذه البساطة. فالاشجار في الحديقة غرسها الانسان. بذورها ونموها ظواهر طبيعية. التربة جزء من الطبيعة يصلحه الانسان. الحيوانات الداجنة — مواضيع طبيعية تتحقق فيها لدرجة ما غايات الانسان عن طريق الانتقاء الاصطناعي. البنايات بناها الانسان ولكن المواد اخذها من الطبيعة. فالانسان دون شك كائن طبيعي ولكنه قبل كل شيء كائن اجتماعي.

يعيش الانسان على الارض غير منعزل عن الوسط الجغرافي. الوسط الجغرافي — هو ذلك القسم من الطبيعة

الذي يقع في تفاعل وثيق بشكل خاص مع المجتمع ويتعرض لتأثيره. والوسط الجغرافي يتضمن الانهار والبحار والغابات والحقول والصحارى وكل الظروف المناخية والارضية والثروات الطبيعية والنباتات وعالم الحيوانات.

ظهرت الحياة وتطورت في الوسط الجغرافي. تاريخ البشرية هو امتداد لتاريخ الارض. ونحن مرتبطون بالوسط الجغرافي باوثق رباط وحياتنا خارجه غير ممكنة: فرواد الفضاء حين يتركون الارض لفترة ما يصطحبون معهم «قطعة» من الحياة الارضية. وبغض النظر عن كل المميزات الكيفية يظل المجتمع جزءاً من كل اكبر هو الطبيعة.

تاريخ الطبيعة وتاريخ المجتمع اذ يؤثر احدهما في الآخر يتبع احدهما الآخر، يرتبط احدهما بالآخر.

تقوم البشرية التي هي عبارة عن جزء من الطبيعة، بتكييفها. البشرية منذ بدء ظهورها كيفت الطبيعة المحيطة بها، وكلما سارت شوطاً أبعد كان التكييف اكبر. وقد صرفت مقادير لا تحصى من الكدح الانساني

لتكييف الطبيعة. قطع الانسان بعمله الغابات وجفف المستنقعات وأنشأ السدود وسقى الصحارى وبنى القرى والمدن وملأ اليابسة بشبكة كثيفة من الطرق وانجز كثيراً من الاعمال الاخرى.

تحيل البشرية كنوز الطبيعة الى وسائل حياة المجتمع الثقافية التاريخية. فكم من القرون افزع البرق الانسان منيراً حلكة الليل وحاملاً الخرب احيانا، مرغماً الانسان على الانكباب ارضاً عند ضربات الصاعقة. ولكن الانسان فك ألغاز البرق والرعد وسيطر على الكهرباء جاعلاً اياه في خدمة مصالح المجتمع : البرق يسطع مستجيباً في الدوارق الزجاجية وينير الشوارع والبيوت ويحرّك المكائن والقطارات. ولم ينقل الانسان انواعا مختلفة من النباتات والحيوانات الى ظروف مناخية اخرى وحسب ولم يعد خلقها وحسب، وانما غيّر كذلك المظهر الخارجي لمسكنه ومناخه.

يسير تغيير الوسط الجغرافي سريعاً نسبياً وخلال آلاف قليلة بل مئات بل وحتى عشرات من السنين يمكن ان تلاحظ فيه تبدلات جوهرية جداً. من ذلك

ان الناس اذ يحرثون الارض ينقلون بالتالي كل سنة كميات من التراب تفوق ثلاثة اضعاف كمية المنتوجات البركانية التي ترتفع من باطن الارض في مثل هذه المدة. وخلال الخمسمائة سنة الاخيرة استخرجت البشرية من الاعماق ما لا يقل عن خمسين مليار طن من الكاربون ومليارى طن من الحديد. وخلال المائة سنة الاخيرة «اضافت» المشاريع الصناعية الى الجوّ حوالى ثلاثمائة وستين مليار طن من غاز اكسيد الكاربون مما رفع كميته في الجو الى ما يقارب ١٣ في المائة. وتعتبر كمية غاز اكسيد الكاربون المضافة في الجو كافية لرفع معدل درجة حرارته الوسطية درجة او درجة ونصف.

وكلما مضى تطور المجتمع الى ابعد كلما قوي تغييره الوسط الجغرافي بعمله، مجمّعاً فيه خصائص جديدة تبعده أكثر فأكثر عن حالته الاولية. وهذه الخصائص الجديدة التي خلقها عمل الاجيال السابقة تمكن اجيال البشرية التالية من توسيع وسائل العمل ومواد الاستهلاك.

ومع تطور التاريخ، يتغير تأثير الوسط الجغرافي في حياة المجتمع. فكلما اوغل المجتمع في الماضي وكلما كانت قواه اضعف، كلما زادت تبعيته للطبيعة المحيطة به. هكذا مثلاً أثرت العوامل الطبيعية في تكاثف الناس القدماء على الارض غالباً بالقرب من احواض الانهار .

الوسط الجغرافي يؤثر على خصائص الانتاج. الّا انه حين نشير الى ضرورة اعتبار الظروف الطبيعية يجب الّا نغالي في اهميتها فضلاً عن جعلها القوة الحاسمة لتطور المجتمع، كما يفعل انصار الاتجاه الجغرافي في علم الاجتماع. فهم يستنتجون ان التطور الاجتماعي متعلق بخصائص المناخ والتربة والوضع الجغرافي لهذا القطر أو ذاك، زاعمين ان هذه الخصائص تقرر مصير الشعوب ونظامها الاجتماعي والسياسي ونمط حياتها وهلم جرا.

حياة المجتمع الاقتصادية والروحية تفترض وجود حد أدنى معين من الناس في منطقة معينة أي كثافة ضرورية للسكان. وازدياد عدد السكان المطّرد

يكوّن واحداً من الظروف الطبيعية لحياة وتطور المجتمع.

كان ازدياد عدد السكان في عصر الرأسمالية اسرع كثيراً بالمقارنة الى الفترة السابقة. فنجاحات العلم وتحسن الظروف الاجتماعية ادت الى انخفاض نسبة الوفيات. الّا أن النظام البرجوازي للانتاج بدا في حالة لا يستطيع معها الاستفادة من نمو عدد السكان بصورة فعالة. فالقسم الكبير من العمال لا يجد في ظروف المجتمع البرجوازي مجالاً لاستعمال قواه ويشكل جيش عمل احتياطي أي جيش العاطلين الذي يلتحق به صغار المنتجين الذين منوا بالخراب. وفي ظروف الامبريالية يشتد فيض السكان النسبي بصورة خاصة.

ويتصف قانون السكان في المجتمع الاشتراكي بانشغال الناس انشغالا تاما باعمال نافعة اجتماعياً وبتوزيع منسّق ومبرمج للانتاج وبازدياد عدد السكان.

وعلى العموم فخط نمو السكان هو هكذا تقريباً:

الى بداية التاريخ الميلادي كان سكان الأرض يكونون حوالي مائتي مليون وفي عصر النهضة وصل عدد السكان الى نصف المليار وفي منتصف القرن التاسع عشر الى مليار واحد. والى سنة ١٩٣٠ مليارين. وفي سنة ١٩٦٤ يعيش على الارض ٣,٢ مليار انسان.

نمو السكان يفزع كثيراً من العلماء البرجوازيين. فهم يستنتجون ان الجوع وآلام البشرية الأخرى حتمية ولا مفر منها، اذ انها، حسب زعمهم، تكون الوسيلة لوضع تعادل بين كثافة السكان والاحتياطي من اسباب العيش. وأحد مؤسسي هذه النظرية الكاذبة هو القس الانجليزي مالثوس الذي صاغ «ناموس الطبيعة» المزعوم الذي ينص على ان عدد السكان يزداد اسرع كثيراً من مقومات الحياة.

ولقد تأكد عن طريق الابحاث العلمية والاختبار ان الارض تملك مقدرة نامية على زيادة قابليتها الانتاجية في ظروف اجتماعية وتكنيكية موافقة. فالارض تعطي الأنسان دائماً بمقدار ما يضع فيها من وسائل وجهد. فاستعمال الاسمدة الكيماوية وتحسين طرق فلاحة

الارض واصلاح الاراضي والري الخ.. تؤدي الى نمو مطرد للمحاصيل الزراعية.

البشرية لا يهددها نضوب الموارد الطبيعية وكفاف المنتجات الغذائية والمادة الخام لانتاج مواد الاستهلاك. ويكشف العلم عن امكانيات ضخمة في هذا المجال، وبالخصوص الكيمياء الحديثة والفيزياء النووية. وان الاحتياطي من الثروات الطبيعية التي تضمها الارض اكثر بكثير من المتوقع، كما تدل على ذلك نجاحات الجيولوجيين. ولم تكد تمس البشرية بعد كثيراً من مصادر المواد الخام النافعة، هذا فيما يخص مثلاً تلك الثروات التي تحويها اعماق البحار والمحيطات.

يخمن ان عدد سكان الكرة الارضية سيرتفع في خلال المائة سنة القريبة الى ثمانية حتى عشرة مليارات انسان. ومع ذلك فان هذا لا يمكن ان يكون اساساً للاستنتاجات المالثوسية.

وأمر القضاء على الجوع الدائم وسوء التغذية يتعلق بالقضاء على الاستعمار والامبريالية. ولا تستطيع الشعوب المتحررة القضاء على العوز الّا على اساس

تطوير اقتصادها القومى المستقل وثقافتها القومية المستقلة بما فيها العلم.

وهكذا فان ازدياد السكان والوسط الجغرافي يشكلان عاملين مهمين للتطور الاجتماعي ولكنهما ليسا السبب المحدد لسير واتجاه هذا التطور. الدور الحاسم في تطور المجتمع يلعبه أولاً وأخيراً انتاج الخيرات المادية.

الفصل الثاني

الانتاج هو الشرط الرئيسي لحياة المجتمع

ان انتاج الخيرات المادية هو اساس الوجود والشرط الحاسم لتطور المجتمع. وهو بالذات سبب الانتقال من نظام اجتماعي الى آخر. في سير العمل تتغير ادوات الانتاج التي يستخدمها الناس، ومع هذا يتغير الناس انفسهم ومهاراتهم ووعيهم ويتغير نظام حياة المجتمع الاقتصادية كله ويعاد بناء جميع علاقات الناس وتتبدل المنظمات والمؤسسات والافكار والاخلاق.

الانتاج المادي هو أهم وأمسّ من كل ما مارسه الناس في اي وقت وما يمارسونه الآن. وهذا أمر مفهوم تماما. فالناس ملزمون من اجل ان يعيشوا بالحصول على مقومات الحياة، وهم من اجل الحصول على ذلك ملزمون بالعمل. وحياة المجتمع غير ممكنة

بدون العمل. ولا يستطيع الانسان ان يكتفى بما تقدمه له الطبيعة بصورة جاهزة. والناس اذ يضيفون جهدهم الى مواد الطبيعة مستخدمين قوانينها يصنعون تلك الاشياء التي لا توجد في الطبيعة. العمل هو نشاط الناس الواعي والموجه نحو تحويل مواد الطبيعة بمعونة الادوات حسب حاجة الناس.

قوى المجتمع الانتاجية

لتحقيق الانتاج لا بد من المادة التي تتعرض للتكييف. هذه، مثلاً، الارض والثروات الطبيعية والاشجار والمواد الاخرى. ولكن من غير الممكن تحويل الطبيعة بدون استعمال الادوات. ويبدأ انتاج الخيرات المادية قبل كل شيء من صنع ادوات العمل واستخدامها، تلك التي تؤلف، كما قال ماركس، هيكل الانتاج العظمي والعضلي. ولأجل الانتاج وخصوصاً الحديث لا بد من المكائن والآلات وادوات العمل الاخرى. الاشياء التي يبدعها الانسان بقصد التأثير في الطبيعة

واعادة بنائها في صالح الانسان والمجتمع تسمى ادوات العمل.

ومنذ الاطوار المبكرة لوجود الناس عندما كانوا يعيشون حياة القطيع، لم يستطيعوا الاستغناء عن ابسط الادوات كالفأس الحجرية مثلاً. ومع تطور البشرية يتعاظم باستمرار دور ادوات العمل. وفي ايامنا تصبح عملية الانتاج غير معقولة بدون الآلات والاجهزة المعقدة التي تحركها قوة البخار او الكهرباء او الطاقة النووية.

وعلاوة على ادوات العمل يلزم الانتاج بنايات المصانع والمعامل والمذاخر والطاقات ووسائط النقل. وكل هذه الاشياء مجتمعة مع ادوات العمل تدعى وسائل العمل، التكنيك. ووسائل العمل زائداً مواضيع العمل تكوّن وسائل الانتاج.

والدور الرئيسي في عملية الانتاج لا تلعبه ادوات العمل طبعاً وانما الناس. فهم بالذات يخلقون ويحركون وسائل الانتاج. فبدون الناس تبقى وسائل الانتاج ميتة. الانسان وجهده اثمن ثروة على الارض. ولأجل ان تدخل وسائل العمل في عملية الانتاج لا بد من استخدام

القوة العاملة، جهد الانسان الحي. والحديد، كما يقولون، يطرقه الحدّاد لا المطرقة. لقد اشار لينين الى ان القوة الانتاجية الرئيسية لكل البشرية هي العامل، الكادح.

القوى الانتاجية اذن هي وسائل الانتاج التي يبدعها المجتمع وفي اولها ادوات العمل وكذلك الناس الذين يملكون الخبرة الانتاجية والمهارة في العمل والذين يحققون انتاج الخيرات المادية.

وعلى مستوى تطور قوى المجتمع الانتاجية تدل قبل كل شيء درجة اتقان التكنيك. ففي التكنيك تجسد البشرية خبرتها متعددة القرون واساليب تحويل الطبيعة ومستوى معيناً لتطور الثقافة العقلية.

وتطبق مكتشفات ومنجزات العلم بشكل او بآخر في التكنيك. وتعتبر الفتوحات العلمية وتطبيقها في الانتاج على شكل مواد جديدة او ادوات عمل جديدة او تنظيم جديد للانتاج، واحداً من اهم الشروط الاولية للثورة التكنيكية.

والدليل على مدى تطور قوى المجتمع الانتاجية هو انتاجية العمل التى تقاس بكمية المنتجات المصنوعة في معدل زمني. فعلام تتوقف انتاجية العمل؟ انتاجية العمل تتوقف على كمال التكنيك وكفاءة العمال ومستوى تطور العلم وعلاقته بالانتاج وعلى الظروف الطبيعية.

كلما يحقق الانسان استكمالاً تكنيكياً اكبر وكلما يخضع قوى الطبيعة الجبارة لارادته، كلما تنمو اكثر فاكثر مؤهلاته ومعارفه. فلئن كانت ادوات العمل سابقاً بمثابة امتداد وتقوية ليد الانسان فانها الآن في شكل العقل الالكتروني مثلاً تواصل وتعزز المخ البشري. فبعض العمليات العقلية التي ما كانت تنجز سابقاً الا من قبل الانسان وحده اصبحت الآن تنجز اكثر فاكثر بواسطة الآلات. الّا ان التقدم التكنيكي يؤدي، تبعاً للنظام الاجتماعي، الى نتائج اجتماعية متباينة. ففي الرأسمالية مثلاً تؤدي أتمتة الانتاج حتماً الى نمو البطالة الجماعية واشتداد الازمات وما شاكل. وفي الاشتراكية يؤدي التقدم التكنيكي الى تحسين ظروف

العمل والى بعث الرفاهية المادية ورفع مستوى العمال الثقافي والتكنيكي.

اذن فالقوى الانتاجية تعبر عن العلاقات بين المجتمع والطبيعة. ومستوى تطورها دليل على مدى سيطرة الانسان على قوى الطبيعة. وهذا المستوى بدوره يتعين قبل كل شيء بادوات العمل وبدرجة تزويد الانتاج بالطاقات وبالتنظيم والتكنولوجية لعملية الانتاج وبتطور العلم وبمقدار استخدام الناس بنجاح معطيات العلم والتكنيك من اجل سد حاجاتهم.

غير ان هذا ليس الّا جانباً واحداً للانتاج. ولا بد من التأمل فيما يتصف به ايضاً.

العلاقات الانتاجية

منذ البدء كان الانتاج نشاطاً مشتركاً للناس. وهم من اجل ان ينتجوا يدخلون في علاقات معينة، وعن طريقها فقط يتحقق الانتاج. علاقات الناس التي تتكوّن في عملية انتاج الخيرات المادية تسمى العلاقات الانتاجية.

في المجتمع البدائي كان جميع افراد العشيرة القبيلية

القادرين على العمل يكتسبون طعامهم بصورة مشتركة ويستهلكون معاً ما غنموا وكان يبدي بعضهم للبعض الآخر المؤازرة في الصراع والمصاعب. وكانت وسائل الانتاج تعود للعشيرة جميعها. وكانت ملكية وسائل الانتاج عامة. وكان الناس يشغلون مركزاً واحداً في الانتاج الاجتماعي.

في مجتمعات الرق والاقطاع والرأسمالية تكونت علاقات اخرى تماماً، اذ كانت علاقة السيادة والتبعية. ومثل هذه العلاقات تنبع من كون الظالمين يملكون وسائل الانتاج والمظلومين محرومين منها.

ومع الانتقال الى الاشتراكية تتكون بين اعضاء المجتمع علاقات التعاون والتعاضد. وهذا لأن وسائل الانتاج في المجتمع الاشتراكي تصبح ملكية جماعية.

وهذا يعني انه لكي نستوضح صفة العلاقات الانتاجية في هذه المرحلة او تلك من التطور الاجتماعي تلزم الاجابة عن السؤال التالي: في يد من تكون في هذا المجتمع ادوات العمل ومصادر المواد الخام والارض والبنايات وما شاكل ذلك. وبتعبير آخر تتميز العلاقات

الانتاجية قبل كل شيء باشكال الملكية. ويرينا التاريخ انه على اشكال الملكية يتوقف وضع الناس في المجتمع ومكانهم في الانتاج وبالتالي طابع علاقات بعضهم بالبعض. فالملكية الاجتماعية مثلاً في الاشتراكية تؤمن الدور القيادي للكادحين في الانتاج الاجتماعي ويصبح جهدهم قضية شرف ومجد وعلاقات احدهم بالآخر علاقة صداقة وتعاون.

فالعلاقات الانتاجية اذن هي علاقات مادية تقوم مستقلة عن ادراك الناس وارادتهم وتتكون بين الناس في عملية انتاج الخيرات المادية.

ونجد ان للانتاج جانبين مهمين جداً اولهما القوى الانتاجية وثانيهما العلاقات الانتاجية. هما في ارتباط لا ينفصم، ووحدتهما هذه ترينا بأية طريقة ينتج الناس القيم المادية، أي ان وحدة القوى الانتاجية والعلاقات الانتاجية تكوّن اسلوب الانتاج. فكيف يتم التأثير المتبادل بين جانبي اسلوب الانتاج وما هو دور هذا التفاعل في تاريخ المجتمع؟

ومنذ لحظة ولادة المجتمع لم يتوقف الناس ابداً

عن انتاج الخيرات المادية. وها قد مرّ حوالي مليون عام ولم يكن للحاجات البشرية ولا يوم «عطلة» واحد. كل حاجة تسدّ تلد حاجة جديدة. والحاجات الجديدة تتطلب منتوجات جديدة اذن فادوات جديدة وهلم جرا. فلئن كان تطور الانتاج يستدعي في الحياة حاجات جديدة ويغيّر القديمة فان الحاجات المتطورة هي الاخرى تدفع تطور الانتاج.

وتطور الانتاج يتوقف قبل كل شيء على تغيير القوى الانتاجية. وهذه تكون من اكثر العوامل تحركاً وتغيراً في حياة المجتمع المادية. فما سبب هذا؟ سببه تطور واكتمال ادوات العمل مما يتجلى، مثلاً، في انه بظهور الاداة الجديدة الواحدة تنبثق ضرورة ابداع اداة اخرى. الاختراعات التكنيكية واستعمالها في احد مجالات الانتاج تجر وراءها تحولات في مجالات اخرى. وهكذا استدعى ظهور الغزل الميكانيكي والنسج الميكانيكي والخ..

وعلى اثر تغير القوى الانتاجية يتحقق تغير العلاقات الانتاجية. ولكن اذا كانت قوى المجتمع الانتاجية

تتغير بسرعة فان اشكال الملكية اكثر استقراراً. فهي يمكن ان توجد قرونا (الاقطاع والرأسمالية) أو آلاف السنين (عهد الرق) وحتى مئات الآلاف من السنين (المجتمع البدائي). في حدود هذه الفترات تتغير القوى الانتاجية بشكل جوهري وبالتالي كلا جانبي اسلوب الانتاج يتطوران بشكل غير متساوٍ. ولكن هذا التباين له حدوده. فحين تتخلف العلاقات الانتاجية عن القوى الانتاجية يظهر التناقض ويصبح بمرور الزمن اكثر حدة ثم يتحول الى نزاع. وتصبح العلاقات الانتاجية حجر عثرة في طريق تطور قوى الانتاج.

ويحل النزاع بين العلاقات الانتاجية المتخلفة والقوى الانتاجية المتطورة بطريق استبدال العلاقات الانتاجية القديمة بعلاقات جديدة توافق مستوى تطور القوى الانتاجية. في المجتمعات المؤسسة على الملكية الخاصة لا تستطيع العلاقات الانتاجية ان تنسجم طويلاً مع القوى الانتاجية المتطورة باستمرار. ولا يحصل الانسجام الا في المرحلة الأولية لوجود اسلوب الانتاج، ثم تأخذ العلاقات الانتاجية من جديد بالتخلف عن

تطور القوى الانتاجية. وهذا يؤدي الى ظهور تناقضات على مستوى جديد بين القوى الانتاجية الجديدة والعلاقات الانتاجية القديمة. ومرة اخرى تصل التناقضات الى حد النزاع، فيقوم التاريخ بقفزة تطورية جديدة. فتنبري للدفاع عن النظام القديم قوى المجتمع الرجعية. فهي تطمح الى انقاذ علاقات الانتاج التي استنفذت عصرها لأن هذه العلاقات تسمح لها بالتحكم في المجتمع وباستغلال واضطهاد الكادحين. ولهذا بالضبط تحطم قوى المجتمع التقدمية مقاومة القوى الرجعية عن طريق الثورة.

اذن هناك صلة طبيعية بين جانبي اسلوب الانتاج. فمن اجل تطور الانتاج بنجاح ولكي يتطور معه كل المجتمع ايضاً، يجب ان تنسجم العلاقات الانتاجية مع مستوى تطور القوى الانتاجية. فاذا توفر هذا الانسجام فان العلاقات الانتاجية تساعد على تطور القوى الانتاجية واذا انهار فان العلاقات الانتاجية تصبح عقبة في طريق تطور القوى الانتاجية.

فكيف تؤثر العلاقات الانتاجية في القوى الانتاجية؟

الانتاج يطوّره الناس الذين تحركهم مصالح معينة. فاذا كان هذا النظام الاجتماعي يحث الناس على العمل وعلى استكمال التكنيك وتنظيم الانتاج وعلى رفع مهارة الكادحين وعلى انماء مستواهم الثقافي والتكنيكي فان هذا النظام يساعد على تطور القوى الانتاجية. ويرينا التاريخ ان هذا النظام هو الاشتراكية. اما اذا كان النظام الاجتماعي يضع الكادحين في حالة لا ينتفعون فيها من تطور الانتاج فانه يعيق تطور القوى الانتاجية. وهكذا هي الرأسمالية.

القاعدة والبناء الفوقي للمجتمع

تلعب العلاقات الانتاجية الدور الرئيسي في نظام علاقات الناس الاجتماعية كله. وهي تؤلف قاعدة المجتمع الاقتصادية. القاعدة هي ذلك الاساس الذي تنشأ عليه الافكار الاجتماعية والمؤسسات السياسية والحقوقية والثقافية وغيرها من المؤسسات الاجتماعية، أي كل ما ندعوه بالبناء الفوقي. وتعود النظريات والآراء

السياسية والحقوقية والاخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية الى أشكال الوعي الاجتماعي التي ترتبط بكل واحدة منها المنظمات والمؤسسات المناسبة: بالافكار السياسية ترتبط الاحزاب السياسية وبالافكار السياسية والحقوقية ترتبط المؤسسات الحكومية والخ..

والبناء الفوقي الذي تلده القاعدة متصل بها بلا انفصام: فكل قاعدة معينة تبعث بناءً فوقياً مناسباً لها. لنأخذ كمثال النظام الرأسمالي. هناك تسود علاقات انتاج رأسمالية قائمة على اساس الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان. والنظام السياسي يناسب تماماً هذه العلاقات الانتاجية بالذات: تحتل البرجوازية مركز السيادة في الاقتصاد ولذلك تعود اليها بالذات السلطة الحكومية ايضاً. اما الافكار السياسية والحقوقية والاخلاقية والفلسفية والدينية والجمالية وغيرها، السائدة في الرأسمالية وكذلك المنظمات والمؤسسات المناسبة لها – الاحزاب، المحكمة، الكنيسة، المعاهد وغيرها – فتقوم كحامية لمصالح البرجوازية وتستعمل كاداة لقمع الكادحين واضطهادهم.

والانقلاب في البناء الفوقي الذي يحدث في مرحلة الثورة الاجتماعية يتجلى في انتقال السلطة السياسية من الطبقات الرجعية الى الطبقة الجديدة التقدمية وفي الغاء النظام القديم للمؤسسات الاجتماعية وفي استبدال الايديولوجية السائدة سابقاً بايديولوجية جديدة. مثلاً. خلعت الثورة الاشتراكية حكم الطبقات المستغِلة واقامت سلطة الكادحين واستخدمت هذه السلطة لصالح الكادحين من اجل خلق قاعدة جديدة وبناء فوقي جديد.

ومع الغاء القاعدة القديمة يتوقف وجود البناء الفوقي السابق كنظام سائد لآراء ومؤسسات المجتمع القديم. اما بعض عناصره فتعمر اكثر من القاعدة التي انتجتها وتنضم الى البناء الفوقي للمجتمع الجديد. هكذا في الفن والفلسفة والاخلاق يبقى، مع رفض ما هو رجعي قديم، توارث بعض عناصر البناء الفوقي السابق. الاشتراكية والشيوعية تحتضنان كل ما هو ثمين حقاً مما ابدعه الفكر البشري التقدمي في الماضي.

هل من الممكن، انطلاقاً من ان البناء الفوقي يتعلق بالقاعدة، تفسير اية ظاهرة للبناء الفوقي بشكل مباشر

بالقاعدة الاقتصادية للمجتمع؟ هذا لا يجوز، واليك السبب. ان الآراء الفلسفية والفنية والاخلاقية وغيرها تملك استقلالاً نسبياً، مثلاً، بمعنى انه يؤثر احدها في الآخر. كما يجب ايضاً حسبان قربها او بعدها النسبيين عن القاعدة الاقتصادية. لا يجوز، مثلاً، ان ننسب ازدهار الفن الواقعي في جملة من الاقطار الى القاعدة البرجوازية مباشرة. فالفن يتعرض لتأثير تقاليد الفولكلور وتيارات الفكر التقدمية في اقطار مختلفة وكثير غير ذلك. في نهاية الحساب هنا ايضاً لعبت قاعدة المجتمع دوراً رئيسياً، الا ان تأثيرها في الفن ظهر بشكل غير مباشر: فقد تحقق بواسطة السياسة والاخلاق والفلسفة وبواسطة كل تقاليد ذلك المجتمع وتاريخه الطويل. ومن المهم الاخذ بعين الاعتبار كون قاعدة المجتمع الطبقي نفسها ذات تناقض داخلي. وتنعكس طبيعتها المتناقضة في طبيعة البناء الفوقي المتناقضة. مثلاً. انتجت القاعدة الرأسمالية لا المؤسسات والايديولوجية البرجوازية وحسب بل في ظروف سيادة هذه القاعدة تظهر

الايديولوجية البروليتارية ايضاً. فمن اجل النضال ضد الاعداء الطبقيين تصنع البروليتاريا، عدا النظرية العلمية وهي الماركسية، منظماتها ايضاً: النقابات والجمعيات التعاونية والحزب السياسي وغير ذلك. وتتكون لديها مبادؤها الاخلاقية وقواعدها السياسية والحقوقية والجمالية.

الاستقلال النسبي للبناء الفوقي يبرز كذلك فيما يلي: انه حين يدفع الناس الى العمل في اتجاه معين يبرز نفسه بالتالي كقوة اجتماعية فعالة تؤثر في نشوء وحياة وتطور القاعدة. ومثلاً، في المجتمع القائم على الاستغلال كانت الآراء السائدة والمؤسسات وما تزال تأكيداً على عدم مساواة الناس اقتصادياً وسياسياً واستغلال الانسان للانسان. ومع ذلك فقد استخدم الطغاة ويستخدمون هذه الافكار والمؤسسات في نضالهم ضد الجماهير المضطهدة.

البناء الفوقي للمجتمع الاشتراكي وقبل كل شيء أهم عنصريه: الدولة الاشتراكية والحزب الماركسي اللذين ينظمان حياة الشعب الاقتصادية والسياسية والثقافية

– يلعب دوراً ضخما في بناء المجتمع الجديد وفي النضال من اجل السلم وحرية الشعوب.

فالمجتمع اذن هو منظمة اجتماعية معقدة. ويخيل لأول وهلة ان رجال السياسة حين يتخذون القرارات والمراسيم ويبعثون المذكرات وما شاكل ذلك انما يخلقون التاريخ كما يشاؤون. بينما كل هذه الحقائق في حياة المجتمع ما هي الا مظاهر خارجية للعمليات التي تتم في الاعماق. في المجتمع تتفاعل قوى كثيرة: مادية وفكرية. الا ان دور هذه القوى ليس واحداً. فواحدة من بين كل هذه القوى في المجتمع هي الحاسمة والتي، في الحساب النهائي، تحدد كل الاخريات حتى أسمى مجالات الحياة الروحية. هذه القوة هي انتاج الخيرات المادية. فهو بالذات يلعب في حياة المجتمع دور تلك القوة التي تسبب كل الظواهر الاخرى.

الفصل الثالث

ما هي التشكيلة الاجتماعية

على النقيض من علماء الاجتماع البرجوازيين الذين بحثوا حول المجتمع بشكل عام، قدم ماركس موقفاً ملموساً من المجتمع واضعاً مفهوم التشكيلة الاجتماعية في المرتبة الاولى. ان المجتمع بمجموع جوانبه في درجة معينة من تطوره التاريخي: اسلوب الانتاج والعلاقات العائلية والمعاشية ومستوى التقدم العلمي والبناء الفوقي كله يسمى التشكيلة الاجتماعية.

القوى الانتاجية وعلاقات الناس الانتاجية تكون بمثابة الهيكل المادي للمجتمع. وهناك ما يناسبها من المؤسسات المعينة.

كل شعوب العالم بالرغم من خصائص طرق تطور كل واحد منها، تقطع عموماً طريقاً تاريخياً واحداً.

الشعوب البدائية عاشت حياة التفرق نسبياً. كانت الصلات فيما بينها تتصف بعدم الاستقرار وتنحصر كالعادة باحتكاك القبائل المتجاورة. ولم تصطبغ عملية تطور المجتمع تدريجياً بالصبغة العالمية الا في زمن ظهور التاريخ «المكتوب». والصفة العالمية لتاريخ المجتمع البشري تتجلى قبل كل شيء في ان كل شعوب العالم تقطع بصورة عامة طريق تطور واحد، محطاته هي التشكيلات الاجتماعية بملامحها العامة والخاصة في حياة الشعوب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

التعاقب المتتالي للتشكيلات الاجتماعية يرينا الاتجاه العام في تطور البشرية. ولكن ليس كل شعب قد اجتاز جميع هذه التشكيلات. وهذا مفهوم. فبالرغم من ان التاريخ صنعته وتصنعه بهذا القدر او ذاك كل الشعوب الا ان الشعوب لم تظهر كلها في وقت واحد ولم تعش كلها فترات متساوية. وحتى في عهد الانعزال اجتازت الشعوب القديمة التي كان لها تاريخها الطويل المتواصل نفس تلك المراحل عموماً للتطور الاجتماعي.

وتنكبت او تقريباً تنكبت شعوب آخرى تشكيلات معينة. مثلاً، القبائل الجرمانية والسلافية انتقلت من نظام المشاعية الى الاقطاع متنكبة عهد الرق. وبعض الشعوب كالمنغول، مثلاً، بلغت الاشتراكية متنكبة لا الرأسمالية وحسب بل وحتى الاقطاع المتطور. وفي عصرنا هذا ثلث البشرية يبني التشكيلة الشيوعية، والقسم الاكبر من الشعوب يعيش في الرأسمالية، ولا تزال بعض الشعوب تعيش مرحلة العلاقات المشاعية. وتكافح الشعوب المتخلفة بعد ان تحررت من العبودية الاستعمارية من اجل تجنب طريق التطور الرأسمالي. ومع ان بعض الشعوب لم تقطع في تطورها كل التشكيلات فان الطريق التاريخي للتطور الاجتماعي يتعين بالتشكيلات التي يخلف احدها الآخر على التعاقب. وفي نهاية المطاف ستصل كل الشعوب الى الاشتراكية والشيوعية لأنه الى هذا يؤدي التعاقب الطبيعي للتشكيلات الاجتماعية.

التاريخ العالمي يكشف امامنا الطريق التاريخي لحركة البشرية من التشكيلة الاجتماعية الأوطئ الى الأعلى — الشيوعية. واليكم هذا الطريق باختصار.

أول شكل من اشكال المجتمع تاريخياً كان هو النظام المشاعي القبيلي. كانت ادوات العمل آنذاك بسيطة جداً: هراوة، فأس حجرية، سكين حجري، رمح بسنان من الحجر او العظام ومصيدة للوحوش. ومن بعد اخترعت القوس والسهام. وكان العمل المشترك لاعضاء الجماعة البدائية وتعاونهم شرطاً ضرورياً لانتاج الادوات، وللحصول على مقومات الحياة وللصراع مع الطبيعة. وقام هذا العمل المشترك على اساس شيوع ملكية الناس البدائيين لوسائل الانتاج. كان كل شخص يعمل حسب قواه وقدراته خادماً القضية المشتركة وبذلك مصالحه الخاصة ايضاً. كان الناس ينتفعون بدرجة واحدة بانتاج الخيرات المادية، بصنع واتقان الادوات، وبتسهيل عملهم الصعب فساعد هذا على تطور الانتاج.

المستوى الواطئ جدا لتطور القوى الانتاجية، وخبرة الناس المحدودة، والاحتياطي الضئيل من معرفة العالم المحيط بهم، وبساطة ادوات العمل — كل هذا لم يعط حتى عند اشتداد حماس الجماعة

الا القليل من مقومات الحياة بحيث انهم لم يستطيعوا تأمين وجودهم الا ببالغ الصعوبة وظلوا دائماً على حافة الجوع. ولم تكن هناك فضلة يمكن انتزاعها من المنتج لصالح بقية اعضاء المجتمع. في ظروف الحياة الشحيحة، كهذه عمل مبدأ التوزيع المتساوي للمنتوجات.

داخل المشاعية كان يسري مفعول العادات وآداب السلوك المتشكلة قرونا والتي التزمت نظاماً صارماً لدرجة كافية في العلاقات المتبادلة. كانت السلطة في نظام المشاعية البدائي قائمة على قوة السمعة الشخصية وعلى خبرة ومعرفة وحذق وشجاعة واحد ما من اعضاء المشاعية. ومع ان نظام المشاعية كان خالياً من تلك الصفات المقيتة التي ظهرت فيما بعد في المجتمعات الاستغلالية الا انه كان صعباً بشكل مؤلم لحياة الناس. ويكفي القول ان معدل الاعمار آنذاك كان ما يقارب ١٨ سنة.

وبمرور الزمن صارت اسس نظام المشاعية تتآكل ودخل في مرحلة انحلاله. والذي سبب هلاكه هو ذاك

الذي أوجده: اي تطور قوى الانتاج. فاتقان ادوات العمل والتحول من الادوات الحجرية والعظمية والخشبية الى المعدنية سببا تقدماً جوهرياً في اساليب الحصول على مقومات الحياة. وهذا سمح لدرجة كبيرة بتكثير انتاجية العمل وتوسيع مجال استثماره. وعلى اساس تطور القوى المنتجة تظهر اشكال مختلفة لتوزيع اجتماعي للعمل بين مختلف فروع الاقتصاد الوطني (الصيد، تربية المواشي، الزراعة، العمل الحرفي) ويظهر تقسيم العمل داخل الفروع المنفردة. وتتعقد اكثر فاكثر العلاقات الانتاجية. وتبدأ القبيلة والعشيرة بالانقسام الى عوائل. وتصبح العائلة الخلية المستقلة للحياة الاقتصادية .

صار الناس ينتجون اكثر مما كان يلزمهم للاستعمال المباشر. واعان صنع المنتوجات الزائدة على تطور المبادلة بين القبائل في البداية ومن بعد داخل القبيلة ايضاً. وتظهر امكانية الاستئثار بثمرات أتعاب الغير. وتنبثق الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ويكتمل التقسيم السابق للعمل بتقسيم المجتمع

الى عاملين وغير عاملين. وتتخذ علاقات الانتاج في هذه الدرجة من التطور الاجتماعي صفة العلاقات الطبقية. كل هذه العمليات تمت في صراع دائب واصطدامات بين طبقات المجتمع المختلفة. ودخلت القوى الانتاجية في تناقض مع علاقات الانتاج البدائية: الحدود الضيقة للمشاعيات المنعزلة تماماً تحولت الى عائق للنمو الابعد لقوى الانتاج. وبفضل هذا التناقض حل نظام الرق محل نظام المشاعية البدائي.

وفي نظام الرق ينقسم المجتمع الى طبقتين متضادتين: طبقة مالكي الارقاء وطبقة العبيد. وخاصيته المميزة هي امتلاك مالكي الارقاء لا لوسائل الانتاج وحسب بل وللعاملين — العبيد ايضاً. كان الناس سابقاً يعملون سوية وكانوا ينتفعون بالخيرات القليلة لعملهم بصورة مشتركة كذلك. اما الآن فقد ارتفع مستوى الحياة المادية. ولكن العداوة اصبحت تفرق بين الناس. اذ زادت سيطرة الانسان الكادح على الطبيعة وقع في العبودية لانسان آخر. ولم يعد العبد يمتلك ما ينتجه. ولم يعد يمتلك كذلك الشيء الذي ينتج بواسطته. واصبح لا

يملك حتى نفسه. واصبح الانسان «كالحيوان الناطق».
وهذا «الحيوان الناطق» يتبع كلية سيده. كل المحاصيل
التي ينتجها العبد ترجع الى مالكه. ويحصل العبد تماماً
على القدر الذي يصون حياته.

وقد لاحظنا ان انتاجية العمل النامية جعلت من
الممكن تكوين بعض الفائض من محاصيل العمل فصار
هذا الاساس المادي للاستغلال. ولكن بما أن انتاجية
العمل كانت بحد ذاتها واطئة جداً فقد اتخذ استغلال
العبيد شكلاً قاسياً جداً. كانت حياة العبيد على حد
تعبير المفكر الروسي غيرتسن سلسلة من الآلام. كانت
التعاسة تهز مهد العبد وتربيه. كانت هذه المرضعة
المتيبسة الرفيق الملازم له طوال حياته القصيرة.

ولاسناد تسلط مالكي الارقاء ينبثق جهاز خاص
بالقهر والقسر هو الدولة. وفي وقت واحد مع ظهور
الدولة يولد القانون ــ نظام القواعد والاصول التي
تثبت فيها ارادة مالكي الارقاء.

كانت طريقة الانتاج في عهد الرق طريقة أعلى
تاريخياً وكانت بالتالي مرحلة اكثر تقدمية في تطور

المجتمع بالقياس الى النظام البدائي. الرق هو الخطوة الاولى للحضارة. فان تركيز وسائل الانتاج والقوى العاملة في ايدي مالكي الارقاء الكبار وفي يد الدولة خلق امكانية بناء المنشآت التي لم يكن بناؤها في استطاعة الجماعات المشاعية. واثرت العبودية في رفع انتاج البضائع وتوسيع الفلاحة وتربية المواشي والحِرَف وبذلك تطور التجارة. وتتطور علاقات تبادل البضائع والعلاقات النقدية.

وبجهد العبيد تخلق مراكز الحياة الاقتصادية والسياسية و الثقافية: مدن العالم القديم ونظم الري والمعابد والقصور. ودخل في الاستعمال المحراث الحديدي وماكنة الحياكة. وتطورت الفلاحة وزراعة الخضروات وصناعة النبيذ و صناعة الزيوت. وظهرت مشاريع الاعمال اليدوية ـ المانيفكتوره. وبما يناسب تطور الانتاج تكاملت مهارة الكادحين واساليب تنظيم عملهم. وقد ضمن الارقاء بانتاجهم المحاصيل والبضائع تراكم الثروات وتركيزها في المدن مما عزز الاساس المادي للثقافة المتنامية وخلق امكانية تطور العلم والفن.

وقد تحقق التقدم التاريخي على حساب استغلال العبيد واضطهادهم بلا رحمة. ونهض صرح الثقافة المادية و الروحية للبشرية بعرقهم ودمائهم و عظامهم.

الا ان الشكل العبودي لعلاقات الانتاج الذي خلق امكانية اكبر لتطور القوى الانتاجية تحول في مرحلة معينة الى نقيضه: اذ لم تكن للعبيد مصلحة في العمل ولا في اتقان الادوات. وسار نمو القوى الانتاجية ببطء. ولم تكن للعبد مصلحة في استخدام الادوات الجديدة وكان شعوره نحوها عدائياً. واصبح الشكل العبودي للعمل غير نافع. واخذ نظام الرق يتفسخ ويضمحل بالتدريج. وقد طردته من التاريخ نفس القوة التي جاءت به اليه الا وهي تطور قوى المجتمع الانتاجية. وانهار نظام الرق في النهاية تحت ضغط ثورات العبيد وغارات القبائل الاخرى وجاء بديلاً عنه نظام جديد هو الاقطاع.

في المجتمع الاقطاعي قامت العلاقات الانتاجية على اساس ملكية الاقطاعيين للارض. وكانت الملكية الخاصة للارض اساساً لاستغلال الفلاحين. ولكن الفلاحين لم يكونوا ملكية خاصة خالصة للاقطاعي.

كان للاقطاعي الحق في شراء الفلاح وضربه وبيعه ولكن لم يكن له الحق في قتله. والى جانب ملكية الاقطاعيين والملاكين العقاريين لوسائل الانتاج كانت هناك ملكية الفلاح والحرفي لادوات الانتاج ولاستثمارته الخاصة القائمة على جهده الشخصي. فالفلاحون الاقنان كانوا بالمقارنة الى العبيد اكثر انتفاعاً في رفع انتاجية العمل لانهم كانوا يعملون لانفسهم جزءاً من الوقت واجتهدوا في تكثير الانتاج. ونالت الحرف والتجارة في المجتمع الاقطاعي تطوراً اكبر. وانفصلت الحرفية نهائياً عن الفلاحة. وظهرت في المدن ورشات للعمل اليدوي. في عهد الاقطاعية سار شوطاً ابعد تطور القوى الانتاجية. وحصل المحراث الحديدي على انتشار واسع في الزراعة. واستمرت في النمو زراعة الكروم والخضروات. وتكاملت ادوات العمل عند الحرفيين الذين صاروا يختصون اكثر فاكثر واصبحوا اسطوات حقيقيين في عملهم. وزاد استعمال المعدن في الاقتصاد. وظهرت افران صهره. واخترعت البوصلة مما ساعد على توسيع سير المراكب. وظهرت طباعة الكتب.

وقد رسخت القوانين الاقطاعية تباين الناس الاجتماعي والاقتصادي، وتقسيمهم الى طبقات وفئات ـ النبلاء، الكهنوت، الفلاحين، التجار وغيرهم.

وبالتدريج، بلغ تطور القوى الانتاجية في المجتمع الاقطاعي مرحلة النزاع مع العلاقات السائدة في الانتاج، واخذ ذلك الشكل للملكية يقيد الانتاج اكثر فاكثر. ولم تعد للفلاحين الاقنان مصلحة في العمل المجاني لحساب السيد. وكان الاقطاعيون يبددون على الاستهلاك وتجميع مواد الاستهلاك وعلى الولائم والحفلات الباذخة تقريباً كل مجموع المنتوج الفائض الحاصل من الاستثمارة العينية ذات انتاجية العمل الواطئة جداً. وما أنفق النبلاء على توسيع الانتاج الا جزءاً ضئيلاً من مدخولهم. كل هذا اصبح عقبة في طريق تطور المجتمع باطّراد.

وكان في احشاء النظام الاقطاعي يتولد رأس المال التجاري، وخطوة فخطوة يتكون اسلوب جديد، رأسمالي، للانتاج. فكانت البرجوازية بحاجة الى كادحين متحررين من نير القنانة والملكية. فتنظم البرجوازية

ورشات حرفية ضخمة ـ المانيفاكتورات. وتقوم البرجوازية التي صارت تكتسب قوة اقتصادية اكبر فاكبر والتي جمعت حولها جماهير الشعب ـ الفلاحين وسواد سكان المدن ـ تقوم بمعونة الشعب بالثورات التي تقضي على العلاقات الاقطاعية للانتاج والتي ترسخ النظام الرأسمالي.

التشكيلة الراسمالية

يتصف هذا النظام بالصفات التالية: تقوم قواه الانتاجية على الانتاج الآلي الضخم. ووسائل الانتاج الرئيسية تعود الى جزء صغير من المجتمع ـ الرأسماليين. والقسم الاعظم من المجتمع يتكون من البروليتاريين وانصاف البروليتاريين. وهؤلاء محرومون من وسائل الانتاج ومضطرون الى بيع قواهم العاملة والى ان يخلقوا بجهدهم ثروات الطبقات المتسلطة في المجتمع. وعلى هذا ففي اساس الرأسمالية تقع الملكية الخاصة لوسائل الانتاج واستغلال العمل المأجور والقانون

الاساسي للانتاج الرأسمالي هو الحصول على القيمة الزائدة.

والرأسمالية اذ جلبت الظمأ الى الربح والتكديس والمنافسة وتعميم الانتاج بحجم هائل، قد كشفت حوافز جديدة لتطور القوى المنتجة، وصارت تدخل العلم في الانتاج بمقاييس كبيرة. والرأسمالي اذ يرغب في الحصول على اكبر قدر من الارباح يوظف في الانتاج اموالاً ضخمة بقصد توسيعه واتقانه. وقد كتب ماركس وانجلس في «بيان الحزب الشيوعي» ما يلي: «وخلقت البرجوازية، منذ تساطها الذي لم يكد يمضي عليه قرن واحد، قوى منتجة تفوق في عددها وعظمتها كل ما صنعتها الاجيال السالفة مجتمعة. فان اخضاع قوى الطبيعة، واستخدام الآلات وتطبيق الكيمياء في الصناعة والزراعة، ثم الملاحة البخارية والسكك الحديدية والتلغراف الكهربائي، وهذه القارات الكاملة التي كانت بوراً فاخصبت، وهذه الانهار والترع التي اصلحت وراحت البواخر تمخر عبابها،

وهذه الشعوب التي كأنما قذفتها من بطن الارض قوة سحرية، ـ اي عصر سالف واي جيل مضى كان يحلم بان مثل هذه القوى المنتجة العظيمة كامنة في قلب العمل الاجتماعي!»* الا ان كل هذا خلق على حساب ظلم قاس لجماهير الكادحين وقمع وابادة شعوب باكملها. فمن المعروف انه قد استجلبت من القارة الافريقية وحدها الى ما وراء المحيط عشرات الملايين من الزنوج. ومن الصفات الملازمة للرأسمالية فوضى الانتاج والازمات المنتظمة والبطالة المزمنة وبؤس الجماهير والمنافسة والحروب. التناقض الرئيسي للرأسمالية وهو التناقض بين الصفة الاجتماعية للعمل والشكل الرأسمالي الخاص للملكية يجد تعبيراً له في نضال البروليتاريا الطبقي ضد البرجوازية.

في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر تتحول الرأسمالية الى امبريالية. وقد اعطى لينين وصفاً شاملاً

---

* كارل ماركس وفريدريك انجلس. «بيان الحزب الشيوعي». الطبعة العربية. موسكو. ص ٦٧.

للامبريالية. فقد اشار الى ان الامبريالية هي أولاً رأسمالية احتكارية وثانياً رأسمالية طفيلية أو متفسخة وثالثاً رأسمالية محتضرة. في مرحلة الامبريالية حلت محل المنافسة الحرة سلطة الاحتكارات أي الاتحادات الكبيرة للرأسماليين التي ركزت في أيديها الانتاج وتصريف الجزء الاكبر من البضائع. وسعياً وراء الحد الاعلى من الربح يشدد البرجوازيون استغلالهم لكادحي بلادهم ولشعوب البلدان المستعمرة والتابعة. وهم يخوضون نضالاً عنيداً من اجل اعادة اقتسام العالم الذي قد تم تقسيمه. وتكوّن اتحاد متين للاحتكارات والدولة، اي الرأسمالية الاحتكارية للدولة، التي تشدد النزعة العسكرية بشكل لم يكن له مثيل.

في ظروف الامبريالية تصل الى غاية الحدة كل تناقضات المجتمع الرأسمالي وقبل كل شيء التناقضات بين العمل ورأس المال وبين المستعمرات والدول الاستعمارية.

وتتوقف العلاقات الانتاجية البرجوازية عن الانسجام مع المستوى المحرز لتطور القوى الانتاجية وتعطل

تطورها. وأوضح مثال لهذا التناقض هو عدم التناسب الدائم بين العرض والطلب: وفرة البضائع والقدرة الشرائية الضعيفة للاهالي . والنتيجة ظاهرة غير طبيعية كجوع الجماهير وفاقتها وسط الوفرة. وليس بامكان سيل الوفرة ان يجرف العوز والجوع لأن طريقه الى جماهير الشعب يعترضه سد من الملكية الخاصة. واصحاب البضائع يفضلون اغراقها او حرقها او تركها تتعفن كيلا تهبط الاسعار. ولا يعنيهم ان مئات الملايين تجوع وخاصة في الاقطار المتخلفة.

وسبب هذه الظواهر المقيتة يكمن في ان الانتاج والتوزيع في ظل الرأسمالية لا تحددهما طلبات المجتمع بل مصالح الرأسماليين الانانية، لا حاجات الشعب بل ارباح الاثرياء. والملكية الخاصة لا تمنح جماهير الكادحين الواسعة فرصة العيش كما كان بامكانها ان تعيش في هذا المستوى الذي توصل اليه تطور الانتاج.

والتقدم التكنيكي ولوانه يستمر الا ان وتائره ليست ابداً تلك التي هي ممكنة في المستوى الحالي لقوى الانتاج. فان اتجاه التقدم التكنيكي لا يساعد على

تأمين الحاجات البشرية كما انه يستخدم جهد الانسان اكثر فاكثر لاجل خلق وسائل الخراب، لاجل التهيؤ لحرب جديدة. وهذا يعني ان النظام الرأسمالي قد استنفذ نفسه. ويتكشف بوضوح خاص تفسخ الرأسمالية عند استعراض النظام الرأسمالي العالمي ككل. فان المستوى العالي لتطور الانتاج لعدد هزيل جداً من الاقطار قد احرز على حساب استغلال القسم الاكبر من بلدان العالم وقبل كل شيء المستعمرات وانصاف المستعمرات. وعدم التوازن الفظيع بين تطور المتروبولات وتطور المستعمرات واحد من اكبر الشرور التي جلبتها الامبريالية الى شعوب عديدة.

وتطمح القوى الانتاجية للمجتمع المعاصر الى التخلص من القيود الاقتصادية للرأسمالية. وبديهي ان البرجوازية الاحتكارية تبذل كل قواها من اجل انقاذ النظام الرأسمالي. ولكن ليس في استطاعتها صد ما لا مفر منه: هي اشبه ما يكون بالساحر الذي استحضرت تعاويذه كثرة من القوى الجبارة لدرجة انه هو نفسه لم يعد قادراً على التحكم فيها. محق الرأسمالية ليس

امراً مرغوباً فيه وحسب من وجهة نظر التقدم الابعد للمجتمع بل هو امر حتمي اقتصادياً. فامواج النضال الطبقي والوطني التحرري ترتفع سنة فسنة، اعلى فاعلى. غروب النظام الرأسمالي لا مناص منه. لقد حل عصر الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية.

التشكيلة الشيوعية

في احشاء الرأسمالية تتراكم الشروط المادية الضرورية لتولد التشكيلة الجديدة. وتسبق ترسيخ الشيوعية الكاملة مرحلة بنائها التي قد تكون طويلة نسبيا، والتي تحصل في سيرها تحولات في الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والسياسة والافكار والثقافة. وتبدأ هذه المرحلة التاريخية في صورتها الاكثر وضوحاً، كما كان هذا في الاتحاد السوفييتي، من الثورة الاشتراكية واقامة دكتاتورية البروليتاريا، ثم تجتاز في تطورها سلسلة مراحل. المرحلة الاولى منها هي فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية. وتنتهي هذه

المرحلة ببناء الطور الاول من التشكيلة الشيوعية الا وهو الاشتراكية.

وفي الاشتراكية يوجد شكلان للملكية الاجتماعية: ملكية الدولة، اي ملكية كل الشعب والدولة الاشتراكية، والملكية التعاونية الكولخوزية اي ملكية كولخوزات منفردة أو وحدات تعاونية. ولشكلي الملكية هذين طبيعة اشتراكية. والشكل الرئيسي منهما هو ملكية الدولة. فهنا ينمحي كل استغلال الانسان للانسان بسبب انعدام الطبقات الظالمة. وتتخذ العلاقات الطبقية صفة التعاون والتعاضد المشتدين باستمرار. وعلى اساس الملكية الاشتراكية يترسخ المبدأ الاشتراكي للتوزيع: «من كل حسب كفاءاته ولكل حسب عمله».

وتتحقق الثورة الثقافية التي بنتيجتها تصبح الايديولوجية الاشتراكية هي السائدة في المجتمع الاشتراكي.

وقد فتحت العلاقات الانتاجية الاشتراكية افاقاً عريضة لاكثر الوتيرات سرعة في التاريخ لتطور القوى الانتاجية. فهكذا مثلاً الانتاج

الصناعي لجمهورية بلغاريا الشعبية التي كانت في الماضي بلداً متأخراً اقتصاديا نما خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٦٢ الى ١٥ ضعفاً بالمقارنة الى مستوى سنة ١٩٣٧. بينما نما هذا الانتاج في العالم الرأسمالي خلال الفترة ذاتها اربعة اضعاف فقط. وتقضي الاشتراكية على بواعث تطوير الانتاج مثل الركض وراء الربح الرأسمالي والمزاحمة ولكن تخلق دوافع جديدة اكثر قوة. في الاشتراكية كل الناس يعملون للمجتمع أي لأنفسهم ومثل هذا العمل اكثر انتاجية. الكادحون ينتفعون باستعمال المكائن استعمالاً اوسع ما يمكن وباتقانها وبكل انواع وسائل الانتاج وبرفع مهارتهم انفسهم. وتتحد مصلحة المجتمع في رفع انتاجية العمل بانسجام مع مصلحة الكادحين الشخصية المنبثقة من المبدأ الاشتراكي للتوزيع حسب العمل. والدفع حسب الجهد يسمح بتطبيق مبدأ المصلحة المادية للناس في نتيجة عملهم. فالانتفاع المادي يعوّد الناس على العمل بكل قواهم ويساعد كذلك على تطور الدوافع الاخلاقية الى العمل. والجمع بين المصالح المادية

والدوافع الخلقية الى العمل يجد تعبيراً واضحاً له في المباراة الاشتراكية.

في ظروف الاشتراكية يتحقق التوزيع الحكيم للانتاج والتطوير العلمي المخطط لكل مجالات الاقتصاد الوطني.

ويجري تطور المجتمع الاشتراكي في الطريق الى الطور الاعلى للشيوعية بشكل طبيعي. وتنشأ الشيوعية من الاشتراكية كامتداد طبيعي لها وتطور وتكامل لكثير من ملامحها وجوانبها. وهذا أمر مفهوم: فكلتا المرحلتين للتشكيلة الشيوعية تمثلان نظاماً واحداً قائماً على الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج. وبهذا تتعين المبادئ العامة للاشتراكية والشيوعية. الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية عملية ضرورية تاريخياً تلك التي لا يجوز خرقها او اجتنابها بشكل تعسفي. فأي استسباق أو تعجل لا يستطيعان غير ان يصعّبا وان يؤخرا الحركة نحو الشيوعية. ويمكن ان تؤدي الى عواقب وخيمة بخاصة محاولات القفز فوق المرحلة الاشتراكية عن طريق اجراءات مصطنعة اية كانت.

وتجاهل القوانين الموضوعية للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية يمكنه ان يجلب خللاً جدياً لكل الجهاز الاجتماعي. فلا يمكن الانتقال الى الشيوعية مثلاً عن طريق التوزيع بالتساوي. فللانتقال الى الشيوعية يلزم بناء قاعدة مادية تكنيكية جبارة قادرة على تأمين وفرة الخيرات المادية وعلى اعداد الناس الى ان يعيشوا ويعملوا بشكل شيوعي. ان الشيوعية هي ليست المساواة في الفقر بل هي اعلى درجة من المساواة عند اليسر الشامل والحرية التامة لتطور الشخصية من كل النواحي والامكانيات غير المحدودة للتمتع بمباهج الحياة.

وفي احشاء الاشتراكية تظهر براعم الشيوعية. ومن هنا تنجم ميزة اخرى لعملية الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية: في حالة السياسة الصحيحة للحزب والدولة يتم الانتقال بلا نزاعات بين الطبقات والفئات الاجتماعية بل على اساس تعاونها المتين ووحدتها. وهذا أمر ممكن لأن كل الطبقات والفئات الاجتماعية للمجتمع الاشتراكي منتفعة على حد سواء في الانتقال الى الشيوعية.

ليس بناء الشيوعية عملية عفوية وانما هو عملية موجهة ومنظمة. وهي تجري تحت قيادة الحزب الماركسي - اللينيني.

والبرنامج الموضوع بشكل علمي لبناء المجتمع الشيوعي هو برنامج الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي. ويقول البرنامج حول التشكيلة الشيوعية ما يلي: «الشيوعية هي نظام اجتماعي لا طبقي تقوم فيه الملكية الواحدة للشعب بأسره على وسائل الانتاج، والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع اعضاء المجتمع، حيث ، الى جانب تطور الناس من جميع النواحي، ستنمو أيضاً القوى المنتجة على اساس العلم والتكنيك المتطورين على الدوام، وتتدفق جميع مصادر الثروة الاجتماعية سيلاً كاملاً ويتحقق المبدأ العظيم «من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجاته». ان الشيوعية انما هي مجتمع عالي التنظيم لكادحين احرار وواعين، سترسخ فيه الادارة الذاتية الاجتماعية، ويغدو فيه العمل لخير المجتمع الحاجة الحيوية الاولى في نظر الجميع وامراً يدركون

ضرورته، وتطبق فيه كفاءات كل فرد بافيد وجه في صالح الشعب»*.

واساس المجتمع يكوّنه انتاج القيم المادية. ولهذا فان اهم المهمات لبناء الشيوعية هي انشاء القاعدة المادية التكنيكية للمجتمع الجديد. والمهمة الثانية التي تواجه المجتمع في سياق بناء الشيوعية هي تكوين العلاقات الاجتماعية الشيوعية. والمهمة الثالثة هي تربية الانسان الجديد. هذه المهام تترابط بشكل قوي ويجري حلها في وقت واحد.

ان انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية يفترض كهربة القطر كاملاً وتعميم المكننة المجموعية في الانتاج وأتمتته وتطبيق الكيمياء في الاقتصاد الوطني على نطاق واسع وايجاد مواد جديدة وتوحيد العلم والانتاج توحيداً عضوياً والاستعمال الحكيم لكل الموارد

---

* حديث عن برنامج الشيوعيين. التقرير حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي في مؤتمر الحزب الثاني والعشرين. الطبعة العربية. موسكو ١٩٦١. ص ٣١ – ٣٢.

الموجودة والمستوى الثقافي التكنيكي الرفيع لدى الكادحين وزيادة لم يسبق لها مثيل لانتاجية العمل.

ان انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية يفترض الثورة التكنيكية في حقل الزراعة. فهي تحيل العمل في الزراعة من حيث انتاجيته وظروفه وصفاته الى نوع من العمل الصناعي. ففي هذا يكمن المفتاح لحل قضايا تطور الملكية التعاونية حتى اندماجها في ملكية الشعب بأسره.

ان مكننة واتمتة الانتاج تمنحان العمل صفة ابداعية اكثر فاكثر . وعلى هذا الاساس تجري عملية التقريب بين العمل الذهني والعمل العضلي ومحو الحدود بينهما.

والعمل في ظل الشيوعية يكف عن ان يكون واجباً لا اكثر ويتحول الى حاجة الانسان ويصبح مصدراً لبهجة الحياة. وهذا سيعطي المجتمع كسباً عظيماً وسيكون عاملاً جباراً لتقدم اجتماعي أبعد.

والتغلب التام على الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمعاشية بين المدينة والقرية ودمج شكلي الملكية الاشتراكية في ملكية شيوعية واحدة يؤديان الى زوال طبقتي العمال والفلاحين. وسيرتفع شغيلة

الجهد العضلي من حيث مستواهم الثقافي التكنيكي الى مستوى شغيلة الجهد الذهني. وستتحقق في المجتمع الشيوعي مساواة اجتماعية تامة لكل اعضائه وستخلق ظروف متساوية للعمل والمعيشة لكل شغيلة المدينة والقرية.

ومع نمو القوى الانتاجية وازدياد انتاج الثروات المادية والروحية وعلى اساس تطور الملكية الجماعية سيتطور ويتكامل توزيع الخيرات المادية. وسوف تعطي الشيوعية الناس لا كمية من الخيرات المادية التي تؤمن الرخاء وحسب بل ستدخل شكلاً جديداً للتوزيع حسب مبدأ: من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجاته. وهذا يعني ان كل انسان سيحصل من المجتمع على كل ما سيحتاجه. و سيدبر هذا الشكل من التوزيع افضل الظروف لتطور القوة الرئيسية للانتاج، الانسان نفسه. وبذلك يضمن نمواً سريعاً ومديداً للانتاج الاجتماعي. وترفض الماركسية ـ اللينينية الاراء التي بمقتضاها كأن نمو رفاهية الكادحين والوفرة يؤديان الى بعث الاخلاق والاداب التي يتميز بها المجتمع البرجوازي.

وبمقدار ما سيلبي المجتمع اكثر فاكثر الحاجات المادية لكل اعضائه بفضل تطور قواه الانتاجية، سينمو الوزن النوعي للحاجات الثقافية: الحصول على معارف اكثر وسعاً والاستمتاع بالفن وغير ذلك. وان التكنيك المتكامل سيمنح الناس وقت فراغ اكبر كما سيمنحهم التعليم الشامل امكانيات اكثر للتطور من كل النواحي وللهوايات المبدعة ولازدهار الذاتية.

انسجام بين ما هو اجتماعي وبين ما هو شخصي، بين العمل والمتعة، بين التقدم والسعادة — هذا هو المستقبل الذي يطلّ اليوم من بطون الحياة الاشتراكية والذي يخلق بالعمل اليومي البطولي لمئات الملايين من الناس.

الشيوعية هي تشكيلة اجتماعية اعلى. وكل تطور مقبل للمجتمع سيتم في ظل الشيوعية. الشيوعية تعطي كل ما هو ضروري لتطور الشخصية الانسانية. الشيوعية مدعوة لتحقيق مهمة تاريخية: انقاذ البشرية من الظلم الاجتماعي، من كل اضطهاد واستغلال، من فظائع الحروب، ولتوطيد السلم والعمل

والحرية والعدالة والسعادة لكل الشعوب على الارض.

من هذا ينتج ان التشكيلة الشيوعية هي تلك التي تحلم بها جميع الشعوب، هي مستقبلها السعيد. واوضح مثال لكل الشعوب هو تطور الاتحاد السوفييتي الذي هو اول من حقق بناء الاشتراكية ويعبّد بثبات الطريق نحو الشيوعية. وتخدم نجاحات الاتحاد السوفييتي في بناء التشكيلة الشيوعية مصالح جميع الشعوب المكافحة من اجل مستقبلها السعيد وهذا بالاخص مهم للبلدان التي تتطور والتي ستجد دائماً التأييد والمساعدة النزيهة لدى صديقها الصدوق اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وبقية الاقطار الاشتراكية.

الفصل الرابع

الطبقات الاجتماعية والنضال الطبقي

ما هي الطبقات الاجتماعية

منذ لحظة نشوء نظام الرق وحتى وقتنا هذا تكوّن المجتمع مجموعات كبيرة من الناس تختلف احداها عن الأخرى بشكل جوهري. والاساس الاقتصادي لانقسام المجتمع الى طبقات متضادة هو الملكية الخاصة لوسائل الانتاج. فمن هذا المنبع بالذات ينبع ان بعض الطبقات هو المسيطر والاخر مضطهد، بعضها مستغِل والآخر مستغَل. ونوعية الملكية تحدد كذلك طريقة الحصول على المداخيل ومقاديرها. والعلاقة بوسائل الانتاج هي العلامة الاولية للفوارق الطبقية. اما العلامات الاخرى فمشتقة من هذا. وتختلف الطبقات كذلك بنمط حياتها وظروف معيشتها وبمصالحها واهدافها وبارائها السياسية وصفاتها الاخلاقية. وعلى هذا الاساس كان قولاً حقاً

قول القائل: في الاكواخ يفكرون بشكل يختلف عما في القصور.

والموقف الماركسي من فهم العلامات الرئيسية لتقسيم المجتمع طبقياً يقوم على الفهم المادي لعمليات وظواهر التطور الاجتماعي.

والطبقات كما عرّفها لينين هي «جماعات واسعة من الناس ، تمتاز بالمكان الذي تشغله في نظام الانتاج الاجتماعي، محدد تاريخياً، بعلاقتها (التي يحددها ويكرسها القانون في معظم الاحيان) بوسائل الانتاج، بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، وبالتالي، بطرق الحصول على الثروات الاجتماعية وبمقدار حصتها من هذه الثروات»*.

ما هي اذن اسباب ظهور الطبقات في المجتمع؟

في المجتمع المشاعي لم تكن الطبقات. ولقد ظهرت في فترة انحلاله. المقدمة العامة لانقسام المجتمع

---

* لينين. «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ص ٦١٢ — ٦١٣.

الى طبقات هي تطور القوى الانتاجية. وكما ذكرنا سابقاً صار الناس في فترة معينة من تاريخهم ينتجون اكثر مما كانوا يستطيعون استهلاكه مباشرة. فدبّر هذا امكانية اقتصادية لكي يعيش بعض الناس على حساب جهد الآخرين. ظهور الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هو السبب الرئيسي لظهور الطبقات.

ويرتبط ظهور الطبقات ارتباطاً وثيقاً بظهور وتطور التوزيع الاجتماعي للعمل. واول تقسيم اجتماعي كبير للعمل قد تجلي في انفصال قبائل الرعي عن جمهور القبائل العام. فسبَّب هذا ظهور التبادل بين الرعاة والفلاحين، مما ساعد على نمو الثروة الاجتماعية وانقسام الناس طبقياً. وثاني تقسيم اجتماعي كبير للعمل كان في انفصال الحِرفة عن الفلاحة وهذا سبَّب بدرجة اكبر تطور التبادل وعزز التفاوت الاقتصادي بين الناس.

والتقسيم التالي للعمل تجلى في انفصال العمل العقلي عن العضلي. الجهد الذهني تحول الى احتكار للطبقات المتسلطة التي استولت على ادارة الانتاج والاعمال

الحكومية ومهام العبادات الدينية وممارسة للعلوم والفن والفلسفة وما شاكل. وصار العمل العضلي نصيب الاكثرية الساحقة من المظلومين .

وتتفرع الطبقات الاجتماعية الى رئيسية وثانوية.

الطبقات الرئيسية هي تلك التي استدعتها في الحياة طريقة معينة للانتاج والتي تنفذها هي. الطبقات الرئيسية لمجتمع الرق كانت العبيد ومالكي الارقاء، وللنظام الاقطاعي كانت الاقطاعيين والفلاحين وللنظام البرجوازي هي الرأسماليون والعمال. وبالتالي فالطبقات الرئيسية في التشكيلات الاستغلالية هي الطبقات التي تكون واحدة منها مالكة لوسائل الانتاج والاخرى ليس لها ملكية وتكوّن الجمهور الاساسي للمستغَلين. وتظل العلاقات بين هاتين الطبقتين عدائية وتناحرية دائماً وتعبر عن الاشكال الاساسية للاستغلال والاستعباد.

والرق هو الشكل الاول تاريخياً من اشكال الاستغلال. وتلي الرق القنانة في عهد الاقطاع والعمل المأجور في المجتمع البرجوازي. وهذه الاشكال التاريخية الثلاثة للاستعباد الخاصة بالتشكيلات الطبقية الثلاث.

فهذه تختلف فيما بينها بنوعية الاستغلال ومكانة منتج الخيرات المادية المباشر في المجتمع. مثلاً لا يملك العامل في المجتمع البرجوازي وسائل الانتاج وهو مضطر كيلا يهلك جوعاً الى بيع قواه العاملة الى الرأسمالي تماما كما تباع البضائع في الاسواق. والرأسمالي بعد ان يشتري القوة العاملة يستغل العامل اي يستملك عمله.

الى جانب الطبقتين الرئيسيتين توجد في المجتمع الاستغلالي طبقات اخرى ثانوية، مثلا في العالم القديم وجد الى جانب مالكي العبيد والعبيد صغار الفلاحين والحرفيين.

في المجتمع الرأسمالي توجد كذلك طبقات رئيسية وثانوية. فبالاضافة الى الطبقتين الاساسيتين ـــ الرأسماليين والبروليتاريا ـــ توجد كذلك طبقات ثانوية مثلا الملاكون العقاريون. صحيح انه قد قضي في بعض البلدان على ملكية العقاريين للارض. ولكن في الاخرى، مثلا في المانيا، تحول الاقتصاد العقاري بالتدريج الى اقتصاد رأسمالي وطبقة الملاكين العقاريين تحولت الى برجوازية

زراعية. في بلدان اقل تطورا كما في روسيا القيصرية مثلا حيث ظلت اثار مهمة من الاقطاع بقي الملاكون العقاريون موجودين كطبقة خاصة ثم قضت عليهم الثورة الاشتراكية. وهذه الطبقة تمثل في الوقت الحاضر قوة كبيرة في البلدان التابعة والمتحررة. ومن طبقات المجتمع الرأسمالي الثانوية البرجوازية الصغيرة والفلاحون بشكل خاص.

ينسب صغار البرجوازيين كأصحاب ملكية خاصة الى البرجوازية ولكنهم كممثلين لطبقات تعيش من عملها الخاص ومستغلة من قبل البرجوازية الكبيرة ينضمون الى العمال. هذا الوضع الازدواجي للبرجوازية الصغيرة يسبب موقفها المتذبذب في النضال الطبقي. ومع تطور الرأسمالية يمنى المزارعون والحرفيون والفئات البرجوازية الصغيرة الاخرى بالخراب فتنفصل من بينها زمرة رأسمالية قليلة وجمهور البروليتاريين وانصاف البروليتاريين.

ويتعرض المزارعون في البلدان الرأسمالية المتطورة اكثر فاكثر الى الاستغلال من جانب الاحتكارات

والبنوك. فنمو الرأسمالية الاحتكارية وتحولها الى الرأسمالية الاحتكارية للدولة يؤديان الى تركيز الثروات في ايدى القمة الاجتماعية الصغيرة.

لقد تقلص تعداد البرجوازية في الاقطار الرأسمالية بصورة كبيرة خلال السنوات العشر الاخيرة، ولكن ثرواتها وسلطتها تنامت. فمن بين البرجوازية انفصلت الزمرة الاحتكارية التي بدت مصالحها في تناقض لا مع مصالح الكادحين وحسب بل حتى مع مصالح قسم البرجوازية المتوسطة والصغيرة. ويستمر خراب وازاحة الفلاحين والحرفيين وذوى الاعمال اليدوية واصحاب الدكاكين الصغيرة وغيرهم. وبنتيجة هذا يتضاعف عدد الاشخاص الذين يعملون بالاجرة.

النضال الطبقي في المجتمع

منذ ظهور الطبقات بدأ كذلك نضال الاكثرية الساحقة من البشرية ضد المستعبدين. ومقاومة الكادحين للظلم والاستغلال هي القوة العظيمة المحركة للتاريخ. كانت الانتفاضات الفلاحية والحروب تنسف اسس

الاقطاع. وتاريخ المجتمع الرأسمالي هو تاريخ النضال العنيد للبروليتاريا ضد البرجوازية. الاستغلال الفظ للبلدان المستعمرة والتابعة من قبل المستعمرين استدعى حركات التحرر الوطني الجبارة.

وفي مجرى التطور التاريخي للمجتمع اتخذ النضال الطبقي اشكالا مختلفة ودرجات متفاوتة من العنف. وادراك الناس اياه يعود الى الماضي البعيد. فمفكرو العالم القديم ومؤرخو عصر النهضة وصفوا وقائع النضال الطبقي بشكل ساطع. وهذا امر مفهوم. اذ لم يكن بالامكان تصوير حياة المجتمع دون عكس ذلك الذي يكون جانبها الجوهري. الا انه لم يكشف احد غير ماركس وانجلس عن الصفة الطبيعية للنضال الطبقي.

مصدر النضال الطبقي هو التناقضات التناحرية القائمة بين المستغَلين والمستغِلين. وضع الطبقات المضطهدة نفسه في المجتمع والمضايقات التي تتعرض لها من جانب الظالمين تدفعها الى النضال الثوري. ويجرى النضال الطبقي ايضا في تلك الحالات حين لا تدرك الطبقة بعد مصالحها الجذرية. في هذه الحالة

تكون للنضال الطبقي صفة عفوية. ومع ادراك الطبقة لمصالحها الجذرية يصبح نضالها واعياً.

البروليتاريا هي اكثر الطبقات وعياً من بين كل الطبقات التي تقف بوجه البرجوازية. البروليتاريا مرتبطة باكثر اشكال الاقتصاد الاجتماعي تقدماً وهو الانتاج الكبير. فان ظروف العمل في المشاريع الكبيرة حيث تتركز جماهير غفيرة من العمال، تنظمهم وتضبطهم وتربي فيهم التضامن البروليتاري وتجعلهم اكثر قدرة على الاعمال الواعية الفعالة. والعمال حين يشتركون في الاضرابات يقتنعون بالتجربة بان التكاتف والقدرة على الاعمال المنظمة هما السلاح الجبار للنضال ضد العدو الطبقي.

والبروليتاريا بالمقارنة مع الطبقات المضطهدة السابقة تتميز بامكانية عالية على الاتحاد لا على الصعيد الوطني وحسب بل الاممي كذلك: فنضالها يتخذ سعة عالمية. البروليتاريا هي اكثر من كل الطبقات الكادحة تنظيماً. وتتفق مصالح البروليتاريا الطبقية ومصالح كل الكادحين الذين لهم منفعة في التحرر من ربقة البرجوازية.

وهذا يخلق امكانية تحالف متين للبروليتاريا مع جماهير الكادحين الواسعة.

كل طبقة تذود عن مصالحها تحاول ان تثبت سلطتها. وهي لهذا توجد الحزب الذي يدافع عن مصالحها ويقود نضالها الطبقي ومن جملته النضال من اجل السلطة ومن اجل قيادة حكومية للمجتمع بكامله.

ويعكس ظهور الاحزاب السياسية درجة عالية لتطور النضال الطبقي. «في المجتمع القائم على تقسيم الطبقات يصبح النضال بين الطبقات المتعادية بصورة حتمية وفي درجة معينة من تطوره نضالاً سياسياً. نضال الاحزاب هو اكثر صور النضال السياسي للطبقات التحاماً وتكاملاً وتناسقاً» * .

ويحاول مفكرو البرجوازية تصوير احزابهم السياسية كأنها فوق الطبقات ولعموم الشعب والمدعوة لمصالحة الطبقات المتضادة. ويزعم علماء الاجتماع البرجوازيون بان الانتماء الى هذا الحزب او ذاك لا علاقة له بطبقة معينة وان للاحزاب طابعاً عائلياً او تقليدياً او دينياً.

---

* لينين. المؤلفات. الطبعة الروسية. المجلد ١٢. ص ١٣٧.

ويستندون في دعم هذه الفكرة الى النظام البرجوازي المتعدد الاحزاب. الا ان من الواضح لكل انسان غير اميّ سياسياً انه ليس هناك اي فرق مبدئي بين الحزبين الرئيسيين للولايات المتحدة الاميركية مثلا ـ الدمقراطي والجمهوري ـ لا لانهما مؤسسان على تقاليد دينية وثقافية وجغرافية وعائلية متساوية وغير ذلك وحسب، وانما لأن كلا الحزبين يدافعان بايديولوجيتهما وسياستهما عن مصالح طبقة مسيطرة واحدة هي البرجوازية، مصالح رأس المال الاحتكاري.

وخلافاً للاحزاب البرجوازية تعلن الاحزاب الماركسية صراحة عن طبيعتها الطبقية: فهي احزاب الطبقة العاملة وتمثل مصالح كل العاملين واهدافها تتفق والتطور التقدمي للمجتمع.

في سير النضال الطبقي تنشئ البروليتاريا النقابات المهنية والمؤسسات التعاونية ومختلف المنظمات التثقيفية. وهي تنبثق بالضرورة التاريخية كوسائل لحماية مصالح الطبقة العاملة. الا ان اعلى شكل لتنظيم البروليتاريا هو الحزب السياسي.

نمو الحركة العمالية الثورية في البلدان الرأسمالية صحبه تكوين احزاب عمالية كثيرة عبرت باشكال مختلفة عن مصالح نضال البروليتاريا الاقتصادي والسياسي والايديولوجي. والذي يفسر هذا هو انه في عملية تطور الرأسمالية تغتني الطبقة العاملة باستمرار بالخارجين من الطبقات الاخرى وبشكل رئيسي من البرجوازية الصغيرة للمدينة والقرية. وعدا ذلك فالبرجوازية الاستعمارية ترشو على حساب الارباح الاحتكارية وسرقة المستعمرات والبلدان التابعة قسما من البروليتاريا، قمتها. ونتيجة لهذا يظهر ما يسمى بالارستقراطية العمالية. وكان هذا مصدراً لظهور نزعات وانحرافات في الحركة العمالية وارضاً خصبة للانتهازية في صفوفها.

وظهرت الاحزاب الدمقراطية الاشتراكية التي تزعمت الحركة العمالية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين غير قادرة على قيادة الطبقة العاملة الى اقتحام الرأسمالية وذلك لان العناصر الانتهازية قد شلت الطاقة الكفاحية لهذه الاحزاب وسارت في طريق خيانة البروليتاريا والتعاون مع البرجوازية. وعيّن سير

الحوادث التاريخية مهمة تكوين حزب من نوع جديد. ومثل هذا الحزب كونه لينين العظيم كطليعة للطبقة العاملة، كمعبر عن مصالحها الحيوية وعن مصالح واماني كل الكادحين وارادتهم الثورية. وحزب الشيوعيين الذي كوّنه لينين اوصل شعوب الاتحاد السوفييتي الى انتصار الاشتراكية ويقود حاليا البناء الواسع للشيوعية.

في العالم الرأسمالي المعاصر يعنف النضال الطبقي اكثر فاكثر ويتسع نشاط الطبقة العاملة دفاعاً عن مصالحها الاقتصادية والسياسية. ويسير تطور النضال الطبقي في مختلف الاقطار الرأسمالية بشكل متفاوت. ويعنف النضال الطبقي مثلا في فرنسا وايطاليا واليابان وكذلك في الولايات المتحدة الاميركية حيث زاد معدل الاضرابات السنوية خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ ـ ١٩٦٠ الى الضعف بالمقارنة الى سنوات ما قبل الحرب. والاشتباكات الاضرابية الضخمة التي اتسعت في بلجيكا في نهاية عام ١٩٦٠ وبداية عام ١٩٦١ اظهرت ان تفسخ نظام الامبريالية الاستعماري

يزيد حتماً من حدة التناقضات الاجتماعية في الدول الاستعمارية.

في سنة ١٩٥٨ اشترك في الاضرابات ٢٧ مليون شخص وفي سنة ١٩٦٢ اكثر من ٦٠ مليون شخص. ويتميز نضال البروليتاريا الاقتصادي في الظروف الحديثة لا بالعناد الخاص فحسب بل وبانه يرتبط وثيقاً اكثر من اي وقت مضى بالنضال السياسي — النضال من اجل السلم وضد سباق التسلح وضد الفاشية ومن اجل الدمقراطية — بالنضال الذي يكوّن جزءا من النضال من اجل الاشتراكية. واصبحت الاضرابات السياسية سلاحاً هاماً للبروليتاريا. في سنة ١٩٥٨ اشترك في الاضرابات السياسية حوالي ١٠ ملايين ، اي ما يقارب ٤٣٪ من المضربين وفي سنة ١٩٥٩ اكثر من ٢٣ مليون او ٥٦ ٪ من المضربين وفي سنة ١٩٦٠ — ٤١ مليون او ما يقارب ٧٦ ٪ من المضربين.

وتوجه الطبقة العاملة ضربة رئيسية للاحتكارات الرأسمالية ، التي تهتم بالقضاء عليها كل الفئات الرئيسية للامة. ويتوطد في النضال تحالف الطبقة العاملة مع

كل الكادحين. وترص الطبقة العاملة صفوف الفلاحين ـ حليفها الرئيسي ـ للنضال ضد التركات الاقطاعية وسيطرة الاحتكارات. وتصبح حلفاء للطبقة العاملة فئات واسعة من المستخدمين وكذلك قسم كبير من المثقفين.

في الاقطار المتخلفة يتحد النضال الطبقي مع النضال من اجل التحرر الوطني. وفي النضال الوطني التحرري ضد الامبريالية والذي بمحتواه الاجتماعي هو نضال دمقراطي، تستطيع الطبقات المختلفة ان تبرز جبهة واحدة. الطبقة العاملة هي المحارب الاكثر ثباتاً في السير الى النهاية بمهام الثورة الوطنية الدمقراطية المعادية للامبريالية. وحلفاؤها هم الفلاحون الذين لهم مصلحة حيوية في تحقيق الاصلاح الزراعي وفي القضاء على بقايا الاقطاع وكذلك القوى الدمقراطية الاخرى.

وتستطيع البرجوازية الوطنية للبلدان المستعمرة والتابعة والتي لا ترتبط بالدوائر الامبريالية ان تكون شريكاً في الجبهة الوطنية الدمقراطية. في الظروف الحالية تحتفظ البرجوازية الوطنية في هذه البلدان بالقدرة على

القيام بالنضال ضد الامبريالية والاقطاع وتلعب بهذا الشأن دوراً تقدمياً. ولكن البرجوازية الوطنية تتميز بصفة ازدواجية ومستعدة للاتفاق مع الامبريالية والاقطاع.

اما جماهير الشعب فتقتنع بان اصوب طريق للقضاء على التخلف المزمن وتحسين ظروف الحياة هو السير حتى النهاية بمهام الثورة الدمقراطية المعادية للامبريالية وتطوير وتعزيز الجبهة الوطنية المؤسسة على تحالف الطبقة العاملة والفلاحين والبرجوازية الوطنية ذات الشعور الوطني وتهيئة الظروف لتكوين دولة الدمقراطية الوطنية وللانتقال الى طريق التطور الاشتراكي وغير الرأسمالي.

الحركة العمالية العالمية الثورية والنظام الاشتراكي العالمي وحركة التحرر الوطني لشعوب افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية، هذه هي قوى العصر العظيمة المجددة. واحد الشروط الرئيسية للانتصار المقبل لحركة التحرر الوطني هو تحالفها المتين وتعاونها مع بلدان المنظومة الاشتراكية العالمية بوصفها قوة رئيسية للنضال ضد الامبريالية وتحالف متين مع الحركة العمالية للبلدان الرأسمالية.

وقضية العصر الاساسية هي قضية الحرب والسلم. وسيعين الحل الصحيح لهذه المسألة على النضال من اجل السلم والدمقراطية والاستقلال الوطني والاشتراكية.

فان نضال الطبقات هو اذن القوة المحركة للتاريخ في جميع التشكيلات الاستغلالية. ويبلغ النضال الطبقي ذروته في زمن الثورات الاجتماعية.

الثورة الاجتماعية

في تاريخ المجتمع فترات تطور تدريجي وفترات هدم ثوري شديد للنظام الاجتماعي بكامله. ونقصد بالثورة الاجتماعية ذلك الهدم الجذري للنظام الاجتماعي والذي يتحقق عن طريقه الانتقال من تشكيلة اجتماعية الى اخرى. وتسبق الثورات مراحل تطور اجتماعي تطول او تقصر. هكذا في تاريخ اوروبا قبل الثورات البرجوازية جرت عملية تناوب السلالات الملكية وقامت الحروب والانقلابات البلاطية: فالامارات والاقطاعيات المنفردة كانت بلا انقطاع تتخاصم ثم تصطلح ثم تتحارب من جديد ومن جديد تتصالح،

وكل هذا من اجل استقطاع قطعة اضافية من الارض او لنهب حصن مجاور او سرقة حيوانات او الثأر لشرف مهان وما شاكل. ولكن كل هذه الحوادث لم تغير جوهر النظام الاقطاعي. ومع انه اشتعل احياناً لهب الانتفاضات الفلاحية فان الطبقات السائدة قمعتها بضراوة مستغلة سوء تنظيم الفلاحين.

ولكن ها قد حان عصر الهزات الاجتماعية الجبارة. فخلال الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر تعرض النظام الاجتماعي للاقطار الاوروبية المتقدمة لتغيرات جذرية: فقد جاءت الرأسمالية لتحل محل الاقطاع.

دعم مفكرو البرجوازية الناهضة نظرياً حق الشعب في الثورة. ودفاعاً عن هذا الحق القى الخطب اللاهبة خطباء الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر امثال روبسبير ومارات وسينت - جيوست.

وقد تطلع مفكرو البرجوازية الناشئة الى المستقبل حين دعوا الى الثورة ضد النظام الاقطاعي المتفسخ. الا انه مع مجيء البرجوازية الى السلطة واشتداد النضال

الطبقي تغيرت اراء المفكرين البرجوازيين حول حق الشعب في الثورة تغيراً جذرياً واتخذت طابعاً رجعياً. وادار مفكرو البرجوازية المحتضرة ظهورهم الى المستقبل. وهم الآن يعتبرون الثورة ظاهرة غير طبيعية او صدفة او ما شاكل ذلك وينكرون شرعية الثورات الاجتماعية لان هذه الاخيرة مدعوة لقلب سلطة تلك الطبقات الاجتماعية التي يدافع هؤلاء المفكرون عن مصالحها.

ان الثورات الاجتماعية هي ضرورة تاريخية تمتد جذورها في حياة المجتمع الاقتصادية. ومصدر الثورات الاجتماعية هو النزاع بين القوى الانتاجية الجديدة والعلاقات الانتاجية القديمة.

لا تحدث الثورات برغبة اناس منفردين او جماعات او طبقات وانما ينجزها الشعب حين تنضج لها الظروف الموضوعية الملائمة. والذي يسبب الضرورة الموضوعية للثورات في المجتمع الطبقي هو ان الطبقات المسيطرة تدافع عن العلاقات الانتاجية القديمة بمعونة نظام كامل من المؤسسات السياسية والقانونية وغيرها، وقبل كل

شيء بمعونة الدولة والقانون. ولاجل تحطيم هذه العقبات تجب معارضة القوى القديمة بقوى اجتماعية جديدة. وبما ان الطبقات الرجعية تحافظ على العلاقات الانتاجية القديمة بمعونة السلطة الحكومية فان الطبقة التقدمية ملزمة قبل كل شيء باغتصاب السلطة السياسية للقضاء على العلاقات الانتاجية القديمة وتثبيت الجديدة. وهذا يعني ان مسألة انتصار او انهزام العلاقات الانتاجية الجديدة تتوقف في نهاية المطاف على امر اغتصاب الطبقة الثورية للسلطة الحكومية. ولهذا فان قضية السلطة الحكومية هي قضية اساسية لكل ثورة.

يتحقق انتقال السلطة من ايدي الطبقة الرجعية الى ايدي الطبقة التقدمية عن طريق النضال الطبقي الحاد.

في مرحلة الثورة تنبعث الطاقة المبدعة للملايين من جماهير الشعب. في مجرى الثورة الاجتماعية يصلب عود الناس الذين يحققونها ويتجددون ويغتنون روحياً. ولا يمكن ان تكون ثورة بلا ثوار. ولكن الثورة بدورها تلد وتتقن الثوار. يجد الناس في انفسهم القوى والامكانيات التي حتى لم يتوقعوها.

نتيجة لهذا كله يسرع تطور المجتمع لدرجة كبيرة. ولهذا دعى ماركس الثورات محركات التاريخ.

تختلف الثورات بالنوعية والقوى المحركة. وتتحدد نوعية الثورة قبل كل شيء بتلك المهام التي تلتزم بانجازها وكذلك بالطبقة التي تجيء الى الحكم وتصبح القوة المسيطرة سياسياً في المجتمع وبالعلاقات الانتاجية التي ستوضع نتيجة لتلك الثورة.

القوى المحركة للثورة هي تلك الطبقات الاجتماعية التي تحقق الثورة وتخوض النضال ضد الطبقات الرجعية التي انتهى عصرها وتفتح الطريق لتطور علاقات انتاجية جديدة اكثر تقدمية. وواحدة من الطبقات المنفذة للثورة هي القائدة لها. وهي تجر وراءها كل الطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى المشتركة في الثورة. وما هي القوى المحركة للثورة واية طبقة هي القائدة لها — هذا يتوقف قبل كل شيء على نوعية الثورة وكذلك على الظروف التاريخية المعينة لانجازها وعلى تناسب القوى الاجتماعية لتلك المرحلة.

عصر الثورات البرجوازية هو تلك الفترة في تطور المجتمع حين يحصل محو الاقطاع وترسيخ الرأسمالية. ونتيجة للثورة البرجوازية تنتقل السلطة الحكومية من الاقطاعيين والملاكين العقاريين والنبلاء الى ايدي البرجوازية او ائتلاف الرأسماليين والملاكين العقاريين. «امام الثورة البرجوازية كانت مهمة واحدة فقط هي كنس ونقض وهدم كل قيود المجتمع السابق. وكل ثورة برجوازية اذ تنجز هذه المهمة تنفذ كل ما يتطلب منها: فانها تعزز نمو الرأسمالية» *.

تشترك في الثورة البرجوازية الى جانب الفلاحين الطبقات المرتبطة بالانتاج الرأسمالي الناشئ وهي البرجوازية والبرجوازية الصغيرة للمدينة والبروليتاريا الناشئة. والقوة القائدة للثورة البرجوازية هي البرجوازية. فهي وحدت حولها الفلاحين والحرفيين وبروليتاريا المدينة وبمعونتهم اغتصبت السلطة السياسية.

---

* لينين. المؤلفات. الطبعة الروسية. المجلد ٣٦. ص٥.

ومن بين الثورات البرجوازية تتميز بصورة خاصة الثورة البرجوازية الدمقراطية. وميزة هذا النوع من الثورات هي ـ حسب تعبير لينين ـ انه في هذه الثورات ينهض بصورة مستقلة جمهور الشعب، اكثريته واعمق فئات «العامة» الاجتماعية المنسحقة تحت وطأة الظلم والاستغلال فتلقي على كل مجرى الثورة طابع طلباتها ومحاولاتها لبناء المجتمع الجديد على طريقتها مكان القديم المنهار.

الثورات البرجوازية فتحت افاقاً اوسع لتطور قوى المجتمع الانتاجية. والرأسمالية بعد ان طوّرت بشكل جبار القوى الانتاجية تحولت الى عائق عظيم جداً في طريق التقدم الاجتماعي. والنزاع الناشب والمشتد باستمرار بين القوى الانتاجية والعلاقات الانتاجية يضع بكل حدة امام البشرية مهمة نزع الغلاف الرأسمالي المكبل للنمو الطبيعي للمجتمع وتحرير قوى الانتاج التي خلقتها ايدي الشعب واستخدام تطورها بلا عائق لخير المجتمع بكامله. والوسيلة الوحيدة لبلوغ هذا الهدف النبيل هي الثورة الاشتراكية.

في كل الثورات السابقة كانت الطبقات المظلومة هي القوة الصدامية الرئيسية ولكن ثمار النصر كانت للطبقات المستغلة الجديدة: زرع الشعب الاشجار ولكن المستغلين هم الذين قطفوا الثمار. الثورة الاشتراكية وحدها خالصة من التناقضات المميزة لكل الثورات السابقة. فقواها المحركة هي جماهير الكادحين المستغَلة من قبل الامبريالية وعلى رأسها الطبقة العاملة التي تتحد مصالحها مع مصالح اكثرية المجتمع الساحقة.

لذلك تختلف الثورة الاشتراكية بشكل جذري عن كل الثورات الاجتماعية السابقة. فهي تحقق اكثر التغييرات عمقاً في حياة الشعوب، بينما كانت كل الثورات السابقة تغير الشكل الخارجي للاستغلال فقط. اما الثورة الاشتراكية فتقضي على كل استغلال الانسان للانسان. وهي ترفع راية عصر المجتمع اللاطبقي. الثورات السابقة لاءمت فقط السلطة السياسية مع العلاقات الاقتصادية الموجودة والتي ظهرت في اطار

المجتمع القديم. واحد الاهداف الرئيسية للثورة الاشتراكية هو الانتقال الى التشكيلة الجديدة، الشيوعية، مع العلم ان في احشاء الرأسمالية لا تتوالد غير المقدمات المادية للنظام الجديد.

لم تتميز الثورات السابقة بمثل هذه الدرجة من نشاط الجماهير الشعبية كالثورة الاشتراكية. والطبقة العاملة لكونها الطبقة الاكثر ثورية تحقق بزعامة الحزب الماركسي قيادة كل الكادحين. والمسألة الرئيسية للثورة الاشتراكية هي مسألة ظفر الطبقة العاملة في التحالف مع بقية الكادحين بالسلطة السياسية وكذلك تطويرها الى أبعد وترسيخها لصالح جميع الكادحين. ولا تستطيع الطبقة العاملة وحلفاؤها انجاز هذه المهمة الا اذا أنشأت دولة الكادحين.

وقد أثبت معلما البروليتاريا وكل الكادحين ماركس وانجلس في مؤلفاتهما ضرورة الثورة الاشتراكية. ولكنهما عاشا في عصر الرأسمالية الناهضة. فافترضا انطلاقاً من هذا بان الثورة الاشتراكية يمكن ان تنتصر دفعة واحدة في كل الاقطار الرأسمالية المتطورة.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحولت الرأسمالية الى الامبريالية. وتغيرت ظروف الثورة الاشتراكية وقد طور لينين نظرية الثورة تطبيقاً على هذه الظروف الجديدة.

ان الحلقة الرئيسية في النظرية اللينينية عن الثورة هي اثبات امكانية نجاح الثورة الاشتراكية أولاً في قطر واحد او اكثر. وقد برهن لينين على ان تطور البلدان الرأسمالية في ظروف الامبريالية يحصل بشكل متفاوت: بعض الاقطار المتخلفة سابقاً تلحق او تسبق في المجال الاقتصادي الاقطار المتقدمة. «ذلك ان الرأسمالية تتطور في مختلف البلدان بصورة غير متساوية الى أقصى حدّ. ولا يمكن ان يكون الأمر غير ذلك في ظل نظام الانتاج البضاعي. ولذا كان هذا الاستنتاج الذي يفرض نفسه فرضاً وهو ان الاشتراكية لا يمكن ان تنتصر في جميع البلدان في آن واحد. فهي ستنتصر اولا في بلد واحد او في عدة بلدان، بينما تظل البلدان الأخرى، لفترة من الزمن، بلداناً برجوازية او ما

قبل البرجوازية»*. وقد انطلق لينين من ان الرأسمالية كنظام قد نضج بصورة عامة للثورة الاشتراكية. لذلك فمثل هذه الثورة يمكن اولياً ان تنتصر في بلد واحد وليس من الضروري في بلد متطور جداً بل وحتى في بلد متوسط في التطور. في هذه الحالة يلزم تحالف الطبقة العاملة والفلاحين الذي يضمن نصر الثورة.

ان الشرط الهام لانتصار الثورة الاشتراكية هو وجود الحزب الماركسي الذي يكون بامكانه انهاض الجماهير الى النضال الحاسم في مرحلة تفاقم تناقضات الرأسمالية. ومجموع كل هذه الظروف لازم لنجاح الثورة الاشتراكية. وعند هذا فليس من الحتمي ابداً ان تؤلف الطبقة العاملة اكثرية سكان القطر كما زعم رجال الاحزاب الاشتراكية-الدمقراطية.

في بداية القرن العشرين انتقل مركز الحركة الثورية العالمية الى روسيا التي كانت نقطة التقاء كل تناقضات نظام الامبريالية. وبالاضافة الى ذلك تكونت فى روسيا

---

* لينين. «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٤٨٧.

كل الظروف اللازمة لانتصار الثورة الاشتراكية. وعند تحليل خصائص الحركة الثورية للطبقة العاملة في الظروف التاريخية الجديدة وقبل كل شيء خصائص الثورة الروسية سنة ١٩٠٥، استنتج لينين ان القوة القائدة للثورة البرجوازية الدمقراطية في فترة الامبريالية يجب ان تكون البروليتاريا. فهي بالذات التي تنتفع بالسير بالثورة الى النهاية وفي تحقيق التحولات الدمقراطية اولاً، ثم تنتقل الى الثورة الاشتراكية.

وهكذا وضع لينين مسألة تحول الثورة البرجوازية الدمقراطية الى ثورة اشتراكية. كانت الطبقة العاملة الروسية تتميز بمستوى عال من النضال الطبقي. وعلى رأسها كان الحزب الماركسي-اللينيني المتسلح بالنظرية الثورية الحديثة والمتقوى في المعارك الطبقية. وحزب الشيوعيين المهتدي بالنظرية اللينينية للثورة الاشتراكية وحّد في سيل ثوري واحد نضال الطبقة العاملة من اجل الاشتراكية والحركة الشعبية العامة من اجل السلم والنضال الفلاحي من اجل الارض والنضال التحرري الوطني لشعوب روسيا المضطهدة ووجّه هذه القوى

لاسقاط الرأسمالية. فقضي على سيطرة الملاكين العقاريين والرأسماليين. واخذت الطبقة العاملة بتحالف ومع الفلاحين المدقعين السلطة السياسية في يديها وأنشأت الدولة السوفييتية الاشتراكية.

ان الاهمية التاريخية والعمق العلمي للنظرية اللينينية عن الثورة لم تؤكدهما تجربة ثورة اكتوبر العظيمة وحسب بل وكذلك الثورات الاشتراكية التالية. تنير هذه النظرية بضوء ساطع تجربة المعارك المقبلة للكادحين من اجل تحررهم من نير الرأسمال.

وان تحطيم الفاشية الالمانية والعسكرية اليابانية في الحرب العالمية الثانية بالدور الحاسم للاتحاد السوفييتي قد خلق الظروف الملائمة لاسقاط سلطة الرأسماليين والملاكين العقاريين من قبل شعوب مجموعة بلدان في اوروبا وآسيا. وامتدت سلسلة كاملة من الثورات الشعبية - الدمقراطية اي من الثورات الشعبية المعادية للامبريالية والاقطاع والتي تقودها البروليتاريا والقائمة على تحالف العمال والفلاحين. في مجرى هذه الثورات تشكلت جبهات شعبية موحدة، والتف حول الثورة المثقفون

والفئات الوطنية من البرجوازية الصغيرة و المتوسطة. وكانت لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي اهمية عظمى بالنسبة لتطور الثورات الناجح ولنتيجتها المظفرة في هذه البلدان.

الثورة الاشتراكية
وحركة التحرر الوطني

الى جانب الثورات الاشتراكية والشعبية-الدمقراطية في مرحلة الامبريالية تكتسب اهمية عظيمة الثورات الوطنية التحررية اي الثورات الناشئة من حركة التحرر الوطني والموجهة للقضاء على السيطرة الاجنبية ولنيل الاستقلال الوطني ومحو الظلم والاستغلال للاستعماريين واقامة الدولة الوطنية.

يجتاز العالم عصر الثورات. فالحركة الوطنية التحررية هي جزء مركب من المجرى الثوري العالمي، وهي كذلك القوة الجبارة المناهضة للامبريالية. ولقد اصبح نداء ماركس وانجلس العظيم: «يا عمال العالم اتحدوا!» الراية الكفاحية للبروليتاريا العالمية. في الظروف

التاريخية الجديدة التي تكونت بعد انتصار ثورة اكتوبر العظيمة أكد لينين بصورة خاصة على الارتباط غير المنفصم بين الثورة الاشتراكية والحركة الوطنية التحررية. ان شعار «يا عمال العالم اتحدوا!» كان وسيظل الشعار الرئيسي للنضال من اجل انتصار الثورة العالمية. ومع ذلك فان محتوى هذا الشعار قد توسع. وقد بارك لينين شعار «يا عمال العالم ويا ايتها الشعوب المضطهدة اتحدوا !». في هذا الشعار تأكيد على الدور القيادي للبروليتاريا وعلى الاهمية المتنامية لحركة التحرر الوطني. وعلى اساس تعميم تجربة الحركة الثورية العالمية وضعت الاحزاب الماركسية الشقيقة لكل العالم وصفاً علمياً عميقاً للعصر الراهن. «ان العهد الراهن، ومضمونه الاساسي الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، هوعهد النضال بين النظامين الاجتماعيين المتضادين، عهد الثورات الاشتراكية والثورات الوطنية التحررية، عهد انهيار الاستعمار و تصفية نظام المستعمرات، عهد انتقال شعوب جديدة وجديدة الى طريق

الاشتراكية، عهد انتصار الاشتراكية والشيوعية على نطاق العالم كله».

يتعين طابع ومحتوى الحركة الثورية العالمية في العصر الحالي بانصباب في تيار واحد كل من نضال الشعوب التي تبني الاشتراكية والشيوعية ضد الامبريالية والحركة الثورية للطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية و النضال الوطني التحرري للشعوب المضطهدة. والدور الحاسم في تحالف القوى الثورية المعادية للامبريالية هذا يعود للطبقة العاملة العالمية ولوليدها الرئيسي ــ النظام الاشتراكي العالمي الذي يبدي تأثيره الرئيسي في تطور الثورة الاشتراكية العالمية بقوة المثال الذي يقدمه قبل كل شيء ببنائه الاقتصادي.

وحين ينظر الكادحون في الاقطار الرأسمالية والبلدان المتحررة من الرأسمالية الى هذه المكاسب والانتصارات، يقولون: «تبرهن الاشتراكية عملياً انها افضل من الرأسمالية. ومن اجل هذا النظام يجب النضال». تكسب الاشتراكية في الظروف الحالية قلوب واذهان شعوب العالم لا بافكارها ومبادئها وحسب بل قبل كل شيء

باعمالها الكبيرة الناجحة، بمثالها الحي.

تتحقق الثورة الاشتراكية

وتتعين أشكالها وسبلها

بالظروف الملموسة لذلك القطر وبالوضع الدولي.

ان النظام الرأسمالي عموماً في العصر الحاضر قد نضج للثورة الاشتراكية. الا انه في كل قطر تتوقف امكانية تطوير الثورة على مجموعة من الظروف التي تعين الوضع الثوري.

انتصار الاشتراكية والقضاء
على الطبقات المستغِلة

لا بد للقضاء التام على الطبقات من عصر تاريخي كامل. والمرحلة الاولى في انجاز هذه المهمة تشمل فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية. وخلال هذه المرحلة بالضبط يتم القضاء على الطبقات الاستغلالية كما يتم وضع حد لاستغلال الانسان للانسان. وبنتيجة الثورة الاشتراكية يتم القضاء اولاً على طبقة الملاكين العقاريين وتنزع الملكية الرأسمالية الكبيرة. وبعدها يحصل تحويل الملكية الخاصة الصغيرة للفلاحين والحرفيين عن طريق التعاونيات الاشتراكية.

وتظل داخل القطر ضرورة النضال ضد عملاء الامبريالية الذين يتغلغلون اليه. وتبقى كذلك ضرورة النضال ضد التأثير الروحي للعالم الرأسمالي. ويتم النضال ضد مخلفات الرأسمالية في اذهان الناس قبل كل شيء بالوسائل التربوية ولكنه يجب كذلك استعمال الاكراه بالنسبة لذوي الاخلاق الاكثر شراً وخطراً على المجتمع.

في ظل الاشتراكية قضي على الشر الرئيسي للمجتمع الطبقي وهو اضطهاد الانسان للانسان. كل الناس يعملون ويكسبون حسب جهدهم. الا ان الفوارق الطبقية والاجتماعية الاخرى المرتبطة بها (بين المدينة والقرية وبين الناس ذوي الجهد العضلي وذوي الجهد الذهني) لم تزل بعد بشكل نهائي. فما دامت هذه الفوارق باقية،

ظلت المساواة التامة في ظروف عمل ومعيشة الناس غير ممكنة. ولذلك فان ازالة هذه الفوارق وانشاء المجتمع اللاطبقي هما الغاية الاهم للبناء الشيوعي.

وهكذا فان ازالة الفوارق الطبقية بشكل تام مرتبطة بالانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية. ولعملية محو الحدود الطبقية خصائص جوهرية: فهي عملية تدريجية لا تتطلب الانقلاب الثوري.

ومحو الحدود بين الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين يتم بصورة كاملة بتحويلهم الى شغيلة المجتمع اللاطبقي، الشيوعي الذي سوف لا يعرف اية فوارق اجتماعية.

الفصل الخامس

الدولة ودورها في المجتمع

ما هي الدولة

هناك اراء مختلفة حول الدولة ودورها في الحياة الاجتماعية. وهذه المسألة ضللها بصورة خاصة المفكرون البرجوازيون الذين جعلوا من الدولة قوة ما سحرية وفوق الطبيعية. ولكن لم يعط اي واحد منهم جواباً علمياً عن تبعية الدولة للنظام الاقتصادي في المجتمع ، عن الطبيعة الطبقية للدولة، عن قوانين ظهورها وتطورها وعن وظائفها في الحياة الاجتماعية. التفسير العلمي لجوهر الدولة قدمه ماركس وانجلس ولينين.

ان الدولة في المجتمع الطبقي المتناحر هي اداة السلطة السياسية وتنظيم سياسي لاسناد سيطرة طبقة معينة على الطبقة الاخرى.

لم تكن الدولة موجودة دائماً. وهي نتاج التطور التاريخي. في عصر التشكيلة المشاعية البدائية لم تكن الملكية الخاصة ولا الطبقات فلم تكن هناك ضرورة لوجود هيئة خاصة للحكم منفصلة عن الشعب. وانجزت الواجبات الاجتماعية من قبل كل الناس الراشدين. كان ذاك الادارة الذاتية. كان على رأس الجماعة او العشيرة قادة منتخبون من قبل الجميع – الشيوخ. وقامت سمعة شيوخ القبائل وقادتها على ميزاتهم الشخصية: على التجربة الكثيرة والشجاعة والحكمة وما شاكل ذلك. ولكن الحال تغيرت بعد ان ظهرت الملكية الخاصة، واستدعت الفوارق الاقتصادية انقسام المجتمع الى طبقات متضادة. والآن لم يعد بالامكان حل قضايا المجتمع بصورة مشتركة اذ كانت لدى الطبقات المختلفة مصالح متضاربة. هذا بالاضافة الى ان حياة المجتمع نفسها قد تعقدت. «... كانت الحاجة الى مؤسسة يكون في استطاعتها لا تأييد ما بدأ من انقسام المجتمع الى طبقات وحسب بل وتأييد حق الطبقة المالكة في استغلال الطبقات المحرومة وسيطرة الاولى على الاخيرة.

وها قد ظهرت هذه المؤسسة...»*.

اخضاع الكادحين اقتصادياً تضمنه قبل كل شيء الملكية الخاصة للطبقة المسيطرة لوسائل الانتاج. الا ان التبعية الاقتصادية للكادحين لم تكن كافية تماماً لكي يستمر النظام الاجتماعي القائم على الاستغلال في الوجود لفترة طويلة. الشعب المضطهد يؤلف دائماً الاكثرية الساحقة من اية أمة وأما الطغاة فيؤلفون أقلية تافهة. ولكي تتمكن الحفنة الصغيرة من الاغنياء من ابقاء مئات الآلاف وملايين الناس في التبعية لا بد من سلاح سياسي قوي. ومثل هذا السلاح هي الدولة.

الدولة في كل التشكيلات الاجتماعية الطبقية هي التنظيم السياسي للطبقة المتسلطة اقتصادياً واداة السيادة الطبقية للمستغِلين على المستغَلين وجهاز لدكتاتورية الطبقة المسيطرة. «ان الدولة هي آلة لصيانة سيادة طبقة على طبقة اخرى»**.

---

* ماركس وانجلس. المؤلفات. الطبعة الروسية. المجلد ٢١. ص ١٠٨.

** لينين. «الدولة». الطبعة العربية. موسكو. ص ١١.

وللدولة بكونها اداة السلطة السياسية في المجتمع الطبقي، مجموعة من الصفات المميزة. السلطة العليا في الدولة تنفذ عن طريق هيئات معينة. فالطبقة المسيطرة في التشكيلات الطبقية تمسك بيدها زمام الحكومة والجيش والهيئات القانونية والبوليس وما شاكل ذلك. وللدولة دائماً جهاز معين يقف فوق المجتمع ويتمثل في مجموعة من الناس تختص بصورة رئيسية بالحكم. ومن صفات الدولة الاستغلالية تعقيد الجهاز الحكومي وتعزيز مركزيته مما يعلي حتماً من دور البروقراطية أي الموظفين المحترفين المنعزلين عن جماهير الشعب والقائمين فوقه.

ويظهر الجوهر الطبقي للدولة في وظائفها الرئيسية أي في الاتجاهات الرئيسية لنشاطها.

وتحقق دول الطبقات الاستغلالية وظيفتها الرئيسية الداخلية التي هي قمع الكادحين، بواسطة العنف السافر وكذلك بواسطة التأثير الروحي الايديولوجي. في الدولة البرجوازية المعاصرة بالاضافة الى الكنيسة والمدرسة يستخدم كاداة لقمع الكادحين الفكري جهاز الدعاية

المعقد المتشعب: الصحافة البرجوازية، الراديو، السينما، التيلفزيون، المسرح والادب.

وتصف الوظيفة الخارجية علاقة تلك الدولة بالدولة الاخرى وتتجلى في سياستها الخارجية والدبلوماسية. ووظيفة الدولة هذه تنبع من الوظيفة الداخلية وتكون امتداداً لها. فهكذا سياسة الامبريالية المعاصرة الخارجية التوسعية العدوانية هي تكملة لسياستها الداخلية في قمع الكادحين بقصد تقوية سيطرتها والحصول على الحد الاعلى من الارباح.

وتختلف الدول بحسب الطبقة الاجتماعية التي تخدمها وبحسب قاعدة المجتمع الاقتصادية التي تقوم عليها تلك الدولة وبهذا تتعين نوعية الدولة. ونوعية الدولة تعبر عن جوهرها الطبقي اما شكل الدولة فيعبر عن تنظيم السلطة والحكم. التاريخ يعرف ثلاثة انواع رئيسية للدولة الاستغلالية: الرق والاقطاع والبرجوازية.

مثلاً. الدولة البرجوازية هي نوع الدولة التي تمثل دكتاتورية البرجوازية. وهذه الدكتاتورية ترسخ الملكية

الرأسمالية لوسائل الانتاج واستغلال البروليتاريا وكل الكادحين.

والطراز العالي والجديد مبدأيا من الدول هو الدولة الاشتراكية. فاذا كانت كل الانواع السابقة للدولة اداة لاضطهاد الكادحين واداة لتسلط الاقلية على الاكثرية، فان الدولة الاشتراكية تبرز كاداة لمحو استغلال الانسان للانسان ولبناء المجتمع الاشتراكي وفيها تقبض الطبقة العاملة وكل الكادحين على زمام السلطة.

وتختلف اشكال الدولة طبقا لطبيعة السلطة العليا — اي هل يحققها شخص واحد ام انها ترجع رسمياً الى هيئة منتخبة. وعلى هذا الاساس يفرقون بين الشكل الملكي والشكل الجمهوري للحكم. فالملكية هي سلطة شخص واحد (ملك أو قيصر أو امبراطور) تنتقل عادة بالوراثة. اما الجمهورية فهي السلطة التي تنفذها هيئات منتخبة. والتاريخ يعرف صوراً مختلفة من الملكيات والجمهوريات.

وحين نتكلم عن شكل الدولة يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار لا شكل الحكم فقط بل والنظام السياسي الذي يمكن ان يكون دمقراطياً وغير دمقراطي.

فليس سواء للكادحين مثلاً ان توجد الدولة الرأسمالية في شكل ديموقراطية برجوازية ام في شكل دكتاتورية فاشستية. فان الدكتاتورية الفاشستية تقمع جميع منظمات الطبقة العاملة وكل الكادحين. ويمكن ان تُستخدم الجمهورية الدمقراطية البرجوازية وتُستخدم فعلا من قبل الطبقة العاملة مع حلفائها من اجل تنظيم قواها. في ظروف الامبريالية يخوض الكادحون وعلى رأسهم الطبقة العاملة النضال من اجل توسيع الديمقراطية.

ويستغل المفكرون البرجوازيون غالباً كلمة «دمقراطية» زاعمين ان الدولة حيث توجد الدمقراطية تكف عن ان تكون دولة طبقية وتعبر عن مصالح كل المجتمع. كلمة «ديموقراطية» تعني حقاً بمدلولها سلطة الشعب. ولكن في المجتمع الاستغلالي لا يمكن ان تكون هناك سلطة حقيقية للشعب.

في ظل الامبريالية قامت الدولة البرجوازية بانعطاف شديد الى جهة الرجعية. وقد اشار لينين الى ان الامبريالية هي الرجعية على كل الخطوط وقبل كل شيء على خطي الدولة والسياسة.

وتعلن دساتير الدول البرجوازية عن غير قليل من الحريات والحقوق لكل المواطنين: حق الانتخاب العام وحرية الانتخابات وحرية الكلمة والصحافة وغير ذلك. ولكن كل هذا ليس سوى كلمات جميلة تموه المحتوى الاصيل للحياة. فما قيمة حرية العاطل البائس والعاجزين المحرومين من وسائل العيش؟ واية مساواة يمكن ان تكون بين الثري والفقير، بين المتخم والجائع؟ «ان دمقراطية المجتمع الرأسمالي هي دمقراطية لاقلية ضئيلة، دمقراطية للاغنياء»*. قرش قيمة مثل هذه الحرية التي هي ترف سهل المنال لذوي العيش الرغيد فقط. ان الدمقراطية البرجوازية هي تضليل يغطي العبودية بقناع الحرية.

---

* لينين «الدولة والثورة». الطبعة العربية. موسكو. ص ١٠٠.

الرأسمالية هي الهرم الفظيع من الظلم الاجتماعي. في قمته حفنة من دهاقين المال والصناعة. وهي شأنها شأن الارستقراطية المتفسخة لعصور سقوط الامبراطورية الرومانية تغرق في الترف ومتخمة حتى النهاية. وفي نفس الوقت فان مئات الملايين من الناس الذين يؤلفون قاعدة الهرم هذا محكوم عليها بالحرمان والعبودية.

يكوّن الكادحون الجزء الاعظم من الناخبين. ولكن أترى هم ممثلون في البرلمان؟ في الولايات المتحدة الاميركية مثلاً اكثر من ٥١ مليون من العمال والمستخدمين والمزارعين الكادحين. أما في الكونغرس فلا يوجد ولا عامل واحد، ولا مزارع صغير واحد.

طغيان الاحتكارات يسود في كل الحياة الاجتماعية للاقطار الرأسمالية.

الدولة الاشتراكية

نتيجة للثورة الاشتراكية في روسيا وفي عدد من اقطار اوروبا وآسيا واميركا انشئت دول من نوع جديد — دول دكتاتورية البروليتاريا. وهي تختلف بشكل جذري عن الانواع الاستغلالية من الدول.

الدولة البروليتارية هي سلطة الكادحين الذين تقودهم الطبقة العاملة والتي تقام بنتيجة الثورة الاشتراكية وهدفها بناء الاشتراكية. وتبرز الطبقة العاملة في تحالف مع الفلاحين والفئات الدمقراطية الاخرى للمجتمع. وهذه السلطة هي دكتاتورية: فهي اذ تحقق أوسع دمقراطية للكادحين تستعمل في الحالات الضرورية العنف لقمع مقاومة الطبقات الاستغلالية ولقطع دابر نشاط العناصر المعادية.

ان شكل دكتاتورية البروليتاريا كسلطة الاكثرية هو الجمهورية الدمقراطية من نوع اشتراكي: فالسلطة تنفذ من قبل الكادحين انفسهم و من اجل الكادحين. ودكتاتورية البروليتاريا دمقراطية: فانها اداة لاعادة بناء العلاقات الاجتماعية لصالح جميع الكادحين.

ان الرسالة التاريخية لهذه الدولة هي تحطيم مقاومة الطبقات الاستغلالية المندحرة وبناء الاشتراكية.

في المجال الاقتصادي تقوم دولة دكتاتورية البروليتاريا بابدال الملكية الخاصة لادوات ووسائل

الانتاج بالملكية الاجتماعية وتدخل التنظيم المبرمج في الانتاج الاجتماعي لصالح رفاه الشعب وتطوره الشامل.

وهي في حقل العلاقات الاجتماعية تقضي على الطبقات الاستغلالية وعلى امكانية استغلال الانسان للانسان وتحيل كل الناس الى شغيلة في المجتمع الاشتراكي وتشركهم في مكاسب الثقافة الاشتراكية.

الدولة الاشتراكية تترسخ سياسياً عن طريق توسيع قاعدتها الاجتماعية وتقوية تحالف العمال والفلاحين وجذب الجماهير الواسعة الى الاشتراك في ادارة الامور الاجتماعية والتطوير الشامل للديموقراطية الاشتراكية.

ان دكتاتورية البروليتاريا هي الاداة الرئيسية لبناء الاشتراكية.

ما دام ليست هناك امكانيات للانتقال الى المبدأ الشيوعي للعمل والتوزيع، تظل ضرورة الاشراف على مقاييس العمل ومقاييس الاستهلاك. ومثل هذا الاشرا ف يمكن ان تحققه الدولة الاشتراكية فقط. وتقع على عاتق الدولة كذلك مهمات كبيرة في مجال موازنة الانتاج الاشتراكي المتعدد الفروع وضمان ضبط العمل والامن الداخلي. و كذلك لانجاز مجموعة من الواجبات الهامة جداً التي تنبع من الواجب الاممي للدول الاشتراكية امام كادحي العالم بأسره: من اجل التعاون في منظومة الاقتصاد الاشتراكية العالمية ومن اجل ابداء العون للشعوب المكافحة في سبيل استقلالها الوطني

في الوضع المعقد للتوتر الدولي والمساعي العدوانية للدول الامبريالية تحتاج الدولة الاشتراكية الى جيش جبار مجهز بالتكنيك العسكري الحديث وقادر على صيانة العمل السلمي للشعوب، وضرورية كذلك مؤسسات الأمن الداخلي المحبطة لمساعي الاستخبارات الامبريالية ضد الاقطار الاشتراكية.

وتشمل عملية بناء الشيوعية كل جوانب حياة المجتمع الاشتراكي: تطور القوى المنتجة وانتاج وتوزيع الخيرات المادية والروحية واستكمال العلاقات الاجتماعية والتقدم العلمي والتكنيكي والاراء والاخلاق والفن واعادة تنظيم المعيشة ورفع مستوى المعيشة وانماء الثقافة. ونظراً لضرورة انجاز هذه المهام التاريخية ينمو بشكل كبير دور الحزب وكل منظمات الكادحين الجماهيرية: المجالس والنقابات والكومسومول والتعاونيات. يشترك جميع الكادحين بصورة مباشرة في ادارة امور الدولة والامور الاجتماعية.

فما هو اذن المصير التاريخي للدولة؟ نرى ان الدولة ظهرت طبيعياً في ظروف تاريخية معينة مع ظهور الطبقات الاجتماعية. وهي بنفس القدر طبيعية ستنزل من على المسرح التاريخي. ولكن لا يجوز تصور زوال الدولة كزوال بسيط للادارة الحكومية، كاضمحلال هيئاتها واحدة بعد الاخرى. وان الدولة الاشتراكية تتطور الى

الادارة الذاتية الاجتماعية الشيوعية. واضمحلال الدولة عملية تدريجية وطويلة. ولزوال الدولة لا بد من شيوعية كاملة. ومن المقدمات الاقتصادية لزوال الدولة بلوغ مرحلة من تطور قوى الانتاج تسمح بتلبية تامة لحاجات

الناس المادية والروحية المتنامية وتلغي ضرورة الاشراف على مقاييس العمل ومقاييس الاستهلاك. ومن المقدمات الاجتماعية لزوال الدولة المحو الكامل للفوارق الطبقية وكذلك الفوارق بين المدينة والقرية، بين الجهد الذهني والعضلي. ومن المقدمات الايديولوجية لزوال الدولة مستوى عال لثقافة ووعي اعضاء المجتمع والتغلب التام على رواسب الماضي في ذهن وحياة الناس والسيادة المطلقة لاصول الاخلاق الشيوعية. كل هذا هي الشروط الاساسية الداخلية لزوال الدولة. ومن المقدمات الخارجية لزوال الدولة الانتصار التام والنهائي للاشتراكية والشيوعية على الصعيد العالمي ومحو كل خطر للهجوم العسكري من جانب الدول الامبريالية.

لن تكون في المجتمع الشيوعي تلك السلطة العامة التي نجدها في وجود فئة خاصة من الناس المختصين كلية بالحكم. ولكن لا يجوز تصور زوال الدولة الاشتراكية

كتحول الدولة الى لا شيء.

المجتمع الشيوعي هو اتحاد عالي التنظيم ومنسق

للناس المتميزين بادراكهم الشيوعي لواجبهم الاجتماعي وبالانضباط العالي.

وستظل المكانة الشخصية والطاعة قائمتين حتى في المجتمع الشيوعي حيث تبقى ضرورة التنظيم المنسق لاقتصاد عالي التطور ومتنوع وللثقافة. في جسم اجتماعي بهذا التعقيد كالمجتمع الشيوعي سوف لا يمكن الاستغناء عن القيادة المتقنة للاقتصاد والثقافة وتعليم وتربية الجيل الناشئ وتنظيم العمل والاستهلاك. من هذا كله ينتج ان السلطة ستكون موجودة في الشيوعية. ولكن سوف لا تكون لها صفة سياسية. لن يتطلب تنظيم وقيادة حياة المجتمع الاقتصادية والثقافية السلطة السياسية (وما يرتبط بها من الاجراءات القسرية من قبل الدولة). وستنجز هذه المهام الادارة الذاتية الاجتماعية الشيوعية.

مع زوال الدولة يزول القانون ايضا. ولا يعني هذا بالطبع ان الناس في ظل الشيوعية سوف يعيشون بدون اية اصول. فهنا ستترسخ الاصول المتعارف عليها للتعايش الشيوعي التي تصبح مراعاتها حاجة وعادة للناس.

وبغض النظر عن المستوى العالي لوعي اعضاء المجتمع الشيوعي فمن الظاهر انه لا يستبعد ان تجد مجالاً لها بعض النزاعات الشخصية وانتهاكات النظام العام. ولكنها ستسوى بقوة التأثير الاجتماعي.

وستعمل الادارة الذاتية الاجتماعية الشيوعية في جو من الصراحة التامة وكذلك، وهذا مهم بوجه خاص، من نشاط الناس الوجداني السامي ومن مصلحتهم العميقة في الاعمال الاجتماعية.

في العصر الراهن قامت على انقاض الاستعمار دول فتية مستقلة. وبعض هذه الدول سار في طريق بعث اقتصاده وثقافته الوطنيين. وبعض هذه الدول الفتية يتصف بانه دول الديموقراطية الوطنية اي دول تذود بدأب عن استقلالها السياسي والاقتصادي والتي تكافح الامبريالية واشكال الاستعمار الجديد، دول ضُمنت للشعب فيها الحقوق و الحريات الدمقراطية الواسعة ويتأمن اشتراكه في تعيين وتطبيق السياسة الحكومية. وستتحول دول الدمقراطية الوطنية في المستقبل وفي الظروف الملائمة الى دول اشتراكية وعلى اساس البناء

الاشتراكي ستقضي على التأخر الاقتصادي والثقافي الموروث من عهد سيطرة الاستعمار وسترفع المستوى الحياتي لشعوبها وستنضم الى ركب الاقطار الاشتراكية المتقدمة والمتطورة صناعياً.

الفصل السادس

الاشكال التاريخية للتجمع البشري

توجد البشرية دائماً في صورة اشكال مختلفة من التجمع.

أول شكل من التجمع الانساني الذي حل محل حياة القطيع البدائي هو التنظيم المشاعي الذى سلف الكلام عليه. وكانت المشاعة تتألف من مجموعة الناس المرتبطين بوشائج القرابة الدموية والعمل الجماعي والدفاع المشترك عن المصالح العامة والمرتبطين بعمومية اللغة والطباع والتقاليد. وكان توحيد عدة مشاعات يكوّن القبيلة. وكانت للقبيلة منطقتها الخاصة. وكل قبيلة كانت تصون حرمة منطقتها. وكانت القبائل قليلة العدد نسبياً وتعد بمئات او آلاف الأشخاص.

تكوين حلف القبائل، الذي صاحبه تعزيز الصلات الاقتصادية والثقافية بين القبائل والصدامات الحربية

وهجرة الاهالي بسبب زيادة عدد الناس وظهور الملكية الخاصة والطبقات ــ كل هذا أدى الى امتزاج القبائل تدريجياً والى استبدال الروابط الدموية القبلية بروابط اقليمية والى ظهور شكل جديد من التجمع التاريخي ــ القومية.

القومية والامة

كانت القوميات تتكون عادة من عدد من القبائل القريبة باصلها ولغتها. مثلاً القومية البولونية تكونت من القبائل السلافية: البولونيين والفيسليين وغيرهم. القومية الالمانية تألفت من القبائل الجرمانية: الشفابيين والبافاريين وغيرهم. جرى تكوّن القوميات كذلك من قبائل ذات لغات مختلفة والتي تمازجت نتيجة لتغلب بعض القبائل على البعض الآخر. فالقومية الفرنسية مثلاً تكونت من المستوطنين الرومانيين والقبائل الغاليّة والجرمانية: الفرانكويين والفوستغوتيين والبرجنديين وغيرهم. في سياق تكوّن القومية، بقدر ما تتوطد الصلات بين اقسامها المختلفة، تحولت لغة احدى القبائل (الأكثر عدداً

او الأكثر تطوراً) الى لغة عامة للقومية اما اللغات الباقية فقد انحدرت الى لهجات واحيانا اختفت كلياً. فالقومية هي تجمع الناس اللغوي والاقليمي والاقتصادي والثقافي القائم على اساس اسلوب الانتاج الاستعبادي او الاقطاعي.

وساعد قيام الدولة على توطيد القومية. مثلاً. في تركيب الدول المركزية لاوروبا الشرقية في عهد الاقطاع كانت تدخل مجموعة كاملة من القوميات. وقد لعبت الدور القيادي في هذه الدول القوميات المتطورة جداً في المجالين السياسي والاقتصادي.

ومع تطور العلاقات الرأسمالية قويت الصلات الاقتصادية والثقافية وظهرت السوق الوطنية وانمحت التجزئة الاقتصادية للقومية المعنية وذابت اجزاؤها المختلفة في وحدة وطنية واحدة وتحولت القومية الى امة.

فما هي الامة اذن؟ «ان الامم هي النتاج والشكل الحتميان للمرحلة البرجوازية من التطور الاجتماعي»*.

---

* لينين. «ماركس، انجلس، الماركسية». الطبعة العربية. موسكو. ص ٥٠.

ان الامة هي تجمع الناس الذي ينبثق في مرحلة اقامة الرأسمالية على اساس اشتراك الحياة الاقتصادية والاقليم واللغة وبعض خصائص الناس السيكولوجية والتقاليد الحياتية والثقافية. والامة بخلاف القومية هي تجمع للناس اكثر ثباتاً. والذي يمنحها هذا الاستقرار هو العلاقات الاقتصادية العميقة. وظهرت الامم اما من قبائل وقوميات يتصل بعضها ببعض بصلة القربى واما من افراد قبائل وعناصر وقوميات لا تجمعها قرابة. فمثلاً. تطورت الامة الروسية من القومية الروسية التي تكونت بدورها من القبائل السلافية الشرقية التي ترتبط بقرابة الاصل واللغة. بالاضافة الى ذلك دخلت فيها عناصر كثيرة مما يحيطها من القوميات السلافية الجنوبية والغربية والجرمانية والفنلندية الأوغرية وغيرها.

خصائص الماضي التاريخي وتكون الامة وتطورها والصفة المميزة لنظامها الاقتصادي وثقافتها ومحيطها الجغرافي والتاريخي ومعيشتها وتقاليدها، ان كل هذا يطبع بطابعه الوجه الروحي للامة ويخلق خصائص الطابع القومي. ولكن ليس للامة خاصيتها وحسب بل

كذلك لها ذلك الذي يوحد الامم ويجمع بعضها بالبعض الآخر. فهناك امم مختلفة تتكلم بلغة واحدة او هي تعيش في منطقة مشتركة او تملك كثيراً مما هو مشترك بينها في التاريخ والثقافة والمعيشة والمزاج (مثل هذه البلدان العربية).

الامم البرجوازية والامم الاشتراكية

الامم منها برجوازية ومنها امم البلدان المتحررة، ثم الامم الاشتراكية. الامة البرجوازية شيء غير متجانس. فللبرجوازيين مصالحهم الطبقية وللبروليتاريا غير تلك المصالح. البروليتاريا بطبيعتها أممية ولو انها تكوّن جزءاً من الامة.

لقد بين لينين اتجاهين متناقضين في تطور العلاقات القومية في ظروف الرأسمالية. يتجلى احد الاتجاهين في انتعاش الحياة القومية والحركات الوطنية ضد الظالمين وفي تكوين الدولة الوطنية. والاتجاه المقابل له يتجلى في توسيع الصلات المتبادلة بين الامم وكسر الحواجز بين القوميات وفي تكوين الاقتصاد الواحد

والسوق العالمية. وقد غلب الاتجاه الأول في مرحلة الرأسمالية الناهضة. ويجري تحقيق الاتجاه الثاني في ظروف السيطرة الاحتكارية عن طريق القوة والنهب والاضطهاد الاستعماريين لشعوب البلدان المتخلفة اقتصادياً من قبل الدول الأقوى. وهذا يهيب بالشعوب المضطهدة الى النضال ضد المستعمرين ويعين على اتساع حركة التحرر الوطني التي تؤدي بالنظام الاستعماري البشع الى الانهيار كما تؤدي الى قيام دول وطنية مستقلة. وتبني البلدان المتحررة علاقاتها المتبادلة على مبادئ السلم والصداقة.

تميز الماركسية ـ اللينينية بدقة بين قومية الامم المسيطرة (شوفينية الدول الكبرى والعنصرية) وقومية الامم المضطهَدة. وترفض الماركسية ـ اللينينية رفضاً باتاً الايديولوجية الرجعية لتبرير تسلط امة على أخرى، وتساند قومية الامم المضطهَدة ما دامت هذه القومية موجهة ضد الامبريالية ومن اجل الاستقلال الوطني. وكما لاحظ لينين ففي كل قومية برجوازية لأمة مظلومة محتوى ديموقراطي عام موجه للنضال ضد الظلم.

وديموقراطية الامم المضطهَدة هذه تجب مساندتها حتماً.

ترينا التجربة التاريخية ان الاصل التقدمي في القومية البرجوازية وقتي تاريخياً. فهو مرتبط بالدور التقدمي للبرجوازية الوطنية في حركة التحرر الوطني. وحين تفقد البرجوازية هذه التقدمية تصبح قوميتها رجعية. ولذا فان الاحزاب الماركسية ـ اللينينية اذ تساند نضال الشعوب المضطهَدة من اجل تحررها تربي في الكادحين شعور الاممية البروليتارية.

القوة الكبرى للتقدم التاريخي المعاصر هي التضامن العالمي لكادحي جميع الامم وكل البلدان والقارات. في مركز العصر الحالي تقف الطبقة العاملة ووليدها الرئيسي وهو النظام الاشتراكي العالمي .في هذا ضمانة لنجاح كل الحركات التحررية المعاصرة، اساس التقدم الاجتماعي.

ومع محق الرأسمالية تتغير بشكل جذري سيماء الامم وعلاقاتها فيما بينها . وتتطور الامم الاشتراكية على اساس الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج تلك التي

توحد الناس والشعوب وتقرب ما بينها. والامم الاشتراكية متخلصة من العداوات الطبقية. ومما يميز علاقات الامم الاشتراكية هو الثقة المتبادلة والتعاضد والمساواة وصداقة الشعوب. في ظل الاشتراكية يعمل في آن واحد اتجاهان: تطور الامم من جهة وتقاربها من جهة اخرى. وهذان الاتجاهان يتميزان عن ذينك اللذين يوجدان في العالم الرأسمالي. فالاتجاهان الأولان كلاهما تقدميان ومترابطان. وازدهار الامم الحاصل بفضل تقاربها وتقارب الامم الجاري بفضل ازدهارها — هذا هو ديالكتيك تطور العلاقات بين الامم في ظل الاشتراكية.

يُرى هذا واضحاً بصورة خاصة في مثال ازدهار وتقارب الامم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. فهنا تكونت صداقة لا تزعزع بين كل الشعوب صغيرها وكبيرها وتعاونها وتآزرها المتبادل في كل الامور. ولا يتكون الا في المجتمع الشيوعي المتطور فقط الشكلُ الجديد لتجمع الناس التاريخي حين تذوب كل الامم طواعية في عائلة انسانية واحدة.

للعلامات العنصرية بخلاف التجمع القومي طبيعة

بيولوجية وهي تكونت نتيجة تكيف طويل للجسم الانساني حسب الظروف الطبيعية المعينة. وتعود امم مختلفة الى عنصر واحد. ومن جهة ثانية يوجد في قوام الامة الواحدة اناس بعلامات عنصرية مختلفة (مثلاً، الافريقيون والبيض والهنود في بعض اقطار اميركا اللاتينية). كذلك ليست هناك صلة داخلية بين الجنس واللغة. فمثلاً، اللغة الانجليزية في الولايات المتحدة الاميركية هي لغة وطنية للبيض وللزنوج معاً. ولذا فان مفاهيم مثل «العنصر الجرماني» او «العنصر الانجلوسكسوني» مفاهيم فارغة.

وما هو الا ادعاء رجعي زعم دعاة العنصرية القائل بان الاجناس البشرية غير متساوية بيولوجياً وسيكولوجياً وبالتالي انه توجد اجناس «ممتازة» واجناس «منحطة». وهو يقوم على تحقير الكفاءات العقلية للشعوب المضطهَدة ولأجل اثبات كما لو أن هذه الاخيرة مفتقرة الى «إشراف» من جانب المستعمرين. ومعطيات الانثربولوجيا المعاصرة تقدم سنداً للتأكيد على ان كل الاجناس كانت لها ولها الآن ايضاً امكانيات بيولوجية

واحدة لكي تتطور. كل شعوب الكرة الارضية قادرة على خلق القيم الثقافية ويتعين مقدار مساهمتها في الثقافة العالمية لا بلون البشرة وشكل الانف بل بخصائص تطورها التاريخي. فلئن كانت شعوب المستعمرات قد تخلفت عن الشعوب الأخرى فالمذنب في هذا الشر هو الامبريالية. ولا شك في ان الشعوب التي تحررت من العبودية الاستعمارية ستتغلب في مدة وجيزة نسبياً وبمعونة الشعوب الاخرى السائرة في الطليعة، على تخلفها الاقتصادي والثقافي وستنضم الى ركب بلدان العالم المتقدمة.

الفصل السابع

الوعي الاجتماعي واشكاله

ما هو الوعي الاجتماعي

حياة المجتمع المادية، انتاج الخيرات المادية هو شيء أولي واما آراء الناس وافكارهم ونظرياتهم فهي شيء ثانوي، أي انتجتها ظروف حياة المجتمع المادية. فكيفما يكون كيان الناس الاجتماعي كذلك يكون وعيهم الاجتماعي. من هذا ينتج انه يجب البحث عن مصدر حياة المجتمع الروحية لا في اذهان الناس بل في ظروف حياة المجتمع المادية. وهكذا تقدم المادية التاريخية الجواب الصحيح الوحيد عن السؤال التالي: لماذا توجد في درجات التطور الاجتماعي المختلفة افكار وآراء ونظريات اجتماعية مختلفة ولماذا هي تتغير تبعاً لتغير ظروف حياة الناس. هكذا في العهود المبكرة من حياة البشر الاجتماعية، في عصر النظام المشاعي البدائي، احتبك نشاط الناس الروحي بانتاج الخيرات المادية مباشرة.

مثلاً، فقد عبرت النساء البدائيات في رقصهن بوضوح عن حركات العمل، مقلدات حركتهن في جمع النباتات. اما الرجال فقد عكسوا في رقصهم حوادث الصيد.

ومع ظهور المجتمع الطبقي وظهور الدولة تنبثق وتتطور اشكال للوعي الاجتماعي مثل الآراء السياسية والحقوقية، الفلسفة، العلم وانواع جديدة من الفن.

اصبحت الحياة الاجتماعية وبضمنها نشاط الناس الروحي اكثر تعقيداً. فلاجل ان نفهم، مثلاً، رقصة المنويت الفرنسية لا تكفي معرفة الحياة الاقتصادية لفرنسيي القرن السابع عشر — الثامن عشر وانما يجب ايضاً حسبان الحساب لانقسام المجتمع الى طبقات وتجب معرفة بسيكولوجية الارستقراطية الفرنسية وغير ذلك.

فما هو اذن الوعي الاجتماعي؟

الوعي الاجتماعي هو مجموعة الآراء السياسية والحقوقية والاخلاقية والفنية والفلسفية والدينية والمعارف العلمية الموجودة في المجتمع المعني .

بم يفسر هذا التنوع في اشكال الوعى الاجتماعي؟ سببه هو تنوع الواقع ذاته الذي يطمح الانسان أنى معرفته ووجود جوانب كثيرة للحياة نفسها.

تتغير الحياة فيتغير كذلك الوعي الاجتماعي. تظهر آراء وافكار جديدة فتشتبك في صراع مع الآراء والافكار القديمة التي استنفدت عصرها. ومن خصائص الوعي الاجتماعي هو انه يمكن ان يتخلف عن الظروف المتغيرة لحياة الناس ولكنه يستطيع ايضاً ان يسبق هذه الظروف والتطلع الى مستقبل البشرية. مثلاً، خلق الناس نظاماً اجتماعياً جديداً وظهرت لديهم آراء جديدة عن الحياة وعن علاقة الانسان بالانسان وبالمجتمع. ولكن في الوقت ذاته تظل موجودة في ذهن افراد من الناس الآراء القديمة الموروثة من الماضي والعادات والتقاليد القديمة. طبعاً، ان هذه الآراء والعادات تندثر بالتدريج وتحل محلها عادات وآراء جديدة. ولكن هذا لا يحدث من تلقاء نفسه بل يذلل بواسطة التربية ومشاركة الشعب الفعالة في بناء الحياة الجديدة. هكذا، تدخل الشعوب المتحررة من

الظلم الاستعماري المزمن، بنشاط في بناء الحياة الجديدة، وفي هذا النضال من اجل حياة حرة جديدة تتغلب تدريجيا على الآراء والعادات القديمة التي عوّدها عليها المستعمرون وتستبدلها بالآراء والافكار الجديدة للناس المستقلين المتحررين الذين يشعرون بانفسهم مالكين حقيقيين لاوطانهم. وتؤثر هذه الافكار والآراء الجديدة بشكل فعال في الحياة وتعبّئ الناس للنضال من اجل الحياة الجديدة وتلهمهم للقيام بالمآثر في العمل وبذلك نفسه تصبح القوة الجبارة للتقدم الاجتماعي.

ان النظام المعين من الآراء والافكار الاجتماعية المدافع عن مصالح هذه الطبقات الاجتماعية او تلك وهذه القوى الاجتماعية او تلك يسمى ايديولوجية.

في المجتمع المنقسم الى طبقات متضادة تتصف الايديولوجية دائماً بطابع طبقي. مثلاً، تسود في المجتمع البرجوازي الايديولوجية البرجوازية لأن وسائل الانتاج والسلطة تكون في يد البرجوازية. فالايديولوجية البرجوازية المعاصرة رجعية لأنها تدعو الى العنصرية وتبرر النهب

والسلب وتسمم الناس بسموم الشك في قوة العقل البشري.

في المجتمع الاشتراكي تسود بلا منازع الايديولوجية الاشتراكية لأن في اساسه تقع الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج تلك التي ترصّ الناس وتوحدهم ولأن السلطة تكون في يد الشعب. ولقد احرزت الايديولوجية الاشتراكية في كل البلدان الاشتراكية نجاحات كبيرة في النضال ضد الايديولوجية البرجوازية مما أدى الى تكوين وحدة الشعب الفكرية والخلقية السياسية في المجتمع الاشتراكي. وتكمن قوة الايديولوجية الاشتراكية في انها تقوم على مبادئ الماركسية ـ اللينينية والاممية البروليتارية والصداقة بين الشعوب.

الايديولوجية الاشتراكية هي اكثر ايديولوجيات العصر طليعية وتقدمية. انها تحمل الى الناس الافكار النبيلة للانسانية والاخوة والصداقة بين الشعوب، افكار السلم والسعادة على الارض. ولهذا بالذات لا يمكنها ان تسالم الايديولوجية البرجوازية التي هي ايديولوجية السلب والحرب. في عصرنا حيث تحقق الشعوب

الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ينمو بشكل لا يقاس دور الايديولوجية الاشتراكية التي تعين على دمج الشعوب في المعركة ضد الامبريالية كما تساعد الشعوب المتحررة على نيل استقلالها وبناء الحياة الجديدة.

لنستعرض اشكال الوعي الاجتماعي على انفراد.

الآراء السياسية

الآراء السياسية او الايديولوجية السياسية هي مجموعة الافكار التي تعبر عن المصالح الجذرية للطبقات والأمم والدول. وتتكون الايديولوجية السياسية في العلاقات المتبادلة بين الطبقات وفي نشاط الاحزاب السياسية والدولة. وهي تجد تعبيراً عن نفسها قبل كل شيء في مناهج ومواثيق الاحزاب السياسية وفي دساتير الدول. وتتوقف نوعية الافكار السياسية على الطبقة التي تعبر عن مصالحها وتدافع عنها. الطبقة الاستغلالية تحاول ان تثبت وضعها التسلطي بواسطة الافكار السياسية. والافكار السياسية المعبرة عن مصالح الطبقات المضطهَدة

تثبت ضرورية محق النظام الاستغلالي وانشاء المجتمع الجديد وهو مجتمع بلا استغلال.

تتغلغل السياسة والصراع السياسي عنوة في كل مجالات الحياة وتتخلل كل اشكال الوعي. ان حياة المجتمع بكاملها، باستثناء المجتمع البدائي، مشبعة، من حيث جوهر الامر، بالمصالح السياسية، بالصراع السياسي. مثلاً، هل تحزم الفتوحات العلمية والاختراعات قضية السلم ام الحرب – ان هذه مسألة سياسية. اية قضايا يستوحي الشعر والموسيقى واي الاحاسيس والنزوات تستدعيان – هذه ايضاً مسألة سياسية. هل تنير الفلسفة وعي الشعب ام تبهمه، أتزرع الحقيقة في العقول ام الضلال – هذه كذلك مسألة سياسية. وفي الاخير الحياة الاقتصادية ايضاً تنتظم في وقتنا باعتبارات سياسية.

لذلك حين عرّف لينين السياسة كتعبير مكثّف عن الاقتصاد أكد في الوقت ذاته أولوية السياسة على الاقتصاد. بهذا يتصف الدور النشيط للسياسة. وتعين أولوية السياسة على الاقتصاد على الاعتراف بالاهمية الحاسمة

لكسب وتقوية السلطة السياسية وانتهاج سياسة صحيحة لاقرار المسائل الاقتصادية. ثم تعني أولويةُ السياسة على الاقتصاد الاعتراف بضرورة اتخاذ موقف سياسي من كل القضايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتنظيمية. وبديهي ان مبدأ أولوية السياسة على الاقتصاد يظل قائماً ما دام وجود الطبقات التي يُعبَّر عن علاقاتها المتبادلة فيما بينها بالسياسة وما دام وجود الدولة. في المستقبل، حين ترسخ الشيوعية نهائياً على الصعيد العالمي، يبقى الاقتصاد وتزول السياسة، آنذاك تفقد قيادة التطور الاقتصادي والثقافي صفتها السياسية.

ومع ولادة الاشتراكية تتحول السياسة لأول مرة في تاريخ البشرية من اداة لقهر وقمع الكادحين الى اداة لحماية مكاسبهم ومصالحهم وتعبر عن تعارض مصالح الشغيلة مع مصالح الاستغلاليين وفي نفس الوقت تعزز ادراك الشيوع الاممي لمصالح واهداف كل الكادحين.

الوعي الحقوقي

ان الوعي الحقوقي هو الآراء والمفاهيم الشائعة في المجتمع والمعبرة عن علاقة الناس بالقانون المعمول به وفهم ما يحق للانسان القيام به وما هو ممنوع قانوناً. ويظهر الوعي الحقوقي في شكلين اساسيين: في صورة مفاهيم اعضاء المجتمع عن الحقوق والواجبات وكذلك في صورة النظريات الحقوقية اي الايديولوجية الحقوقية. والوعي الحقوقي هو التعبير النظري عن تلك العلاقات الاجتماعية التي تتخذ بالضرورة شكل العلاقات الحقوقية في كل مجتمع منظم كدولة.

حاولت البرجوازية دائماً اظهار وعيها الحقوقي بمظهر الوعي الحقوقي للمجتمع كافة. وتضع البروليتاريا في مجرى النضال الطبقي وعيها الحقوقي الاشتراكي. وهو يجد تعبيراً له في المتطلبات السياسية والحقوقية لجماهير الشعب وفي مواقفها ضد الظالمين وفي برامج الاحزاب العمالية وغير ذلك.

وقد خلق بناء الاشتراكية والقضاء على الطبقات

الاستغلالية كل الظروف لتعزيز وعي حقوقي اشتراكي واحد يعبر عن الوحدة الاجتماعية السياسية والفكرية للطبقة العاملة والفلاحين وشغيلة المثقفين. ولأول مرة يسود في المجتمع وعي حقوقي واحد يعبّر عن آراء ومفاهيم لا طبقة ما واحدة بل كل الشعب. الافكار الرئيسية للوعي الحقوقي الاشتراكي هي صيانة الملكية الجماعية وسلطة الشعب والدمقراطية المستقيمة والمبادئ القانونية الاشتراكية والمساواة الحقيقية وتطور الحقوق والحريات في ارتباطها الوثيق بالالتزامات امام المجتمع وغير ذلك.

وان سلطة الدولة الشعبية الاشتراكية اذ تستخدم كل الوسائل الضرورية للتربية والاقناع وقوة الرأي العام فيما يخص الخارجين على القانون فانها تستعمل كذلك وسائل القسر فيما يتعلق بالاشرار والخطرين من المجرمين والمشاغبين والمعتدين على الملكية الاشتراكية الذين يعيقون الشعب عن بناء الحياة الجديدة.

مع بناء المجتمع اللاطبقي واعادة تنظيم الانتاج والتوزيع والعمل وكذلك وعي واخلاق اعضاء المجتمع

على المبادئ الشيوعية تزول اسباب الاجراءات القسرية من اي شكل كانت. وتزول الحاجة الى الدولة بوصفها منظمة سياسية. وتزول الحاجة كذلك الى التنظيم القانوني. وستصبح مراعاة اصول التعايش الانساني بالنسبة للناس المثقفين المفكرين ذوي الاخلاق العالية، كما سيكون عليه اعضاء المجتمع الشيوعي، حاجة خلقية ذاتية لكل شخص.

الاخلاق

ظهرت الاخلاق مع تكون المجتمع. في اساس الاخلاق تقع العادات التي رسخت تلك التصرفات التي اصبحت بتجربة الأجيال نافعة لصيانة الانسان والمجتمع عموماً وتطورهما. والعمل الجماعي وحده استطاع تحويل النوازع الغريزية لسلف الانسان وجعلها دوافع للسلوك واعية ومعبرة اجتماعياً. الشكل الاخلاقي للوعي (الشعور بالخجل، الندم، تأنيب الضمير، الواجب، الشرف وما شاكل ذلك) هو الذخيرة الانسانية التي لا توجد لدى الحيوان.

الضمير والاحساس بالواجب اللذين يمليان علينا بسلطان قوانينهما، ليسا اشياء فطرية. وانما تربيا فينا منذ الطفولة المبكرة.

وقد صنع منا المجتمع الذي تربينا فيه ما نحن عليه الآن خلقياً. الرأي العام وعلاقات الاصدقاء والاقارب والناس الآخرين الذين يحيطون بنا تصاحبنا على طول طريق حياتنا وتدفعنا الى ان نسلك طبقاً للاصول الاخلاقية. ازدراء الآخرين او بالعكس احترامهم قوة عظيمة. وكثيراً ما يمكن نيل ما لا يستطيع العقاب صنعه بالمعاملة الرقيقة والكلمة الطيبة.

تتطلب كل مجموعة العلاقات بين الناس داخل المجتمع مبادئ معينة تضبط السلوك. وينعكس قسم منها في الحق والوعي الحقوقي ويرسخه التشريع. والى جانب الحق تعمل في المجتمع كذلك «القوانين غير المكتوبة» التي تكمن في مفاهيم الخير والشر، العدل والظلم، الواجب والشرف والضمير وغير ذلك. هذا هو اصول الاخلاق. وهي عبارة عن القواعد التي يسترشد الناس بها في علاقاتهم المتبادلة لا بقوة الالزام القانوني وانما بقوة الواجب واحترام الرأي العام وأوامر الضمير.

ان السلوك الخلقي بالمعنى الخاص لهذه الكلمة هو السلوك القائم على الاشراف الداخلي والدوافع الذاتية لأعمال الناس.

الالتزامات الاجتماعية التي تقع على عاتق كل عضو في المجتمع امام الشعب والوطن والشعوب الاخرى والعائلة تتخذ شكل الواجب الخلقي. فالانسان كما لو انه يحس بحاجة ذاتية تنبع من القلب وبدافع للسلوك بشكل او آخر. فهو يحس بشعور الارتياح حين يتصرف بما ينسجم وواجبه ويتعذب بالشعور بالخزي وتقريع الضمير حين يخالف ذلك الواجب. وتظهر الروعة الخلقية للسلوك الانساني حين ينجز الانسان عملاً خلقياً سامياً لا نتيجة احساسه بضغط ما بل بارادته ويقوم بذلك لأنه لا يستطيع ان يتصرف بشكل آخر.

فما الذي يدفع الناس الى تأدية واجبهم؟ انه ادراك الانسان لمصالح تلك الفئة الاجتماعية التي ينتمي هو اليها وادراكه لواجباته امامها.

وتشمل الاصول الاخلاقية بالاضافة الى علاقة الناس بعضهم بالبعض الآخر كذلك علاقتهم بالمجتمع.

أصول الاخلاق ليست أزلية وثابتة. فهي تتغير مع التطور التاريخي للمجتمع. فما يُعترف بخلقيته في بعض الظروف التاريخية يمكن ان يستنكر خلقياً في ظروف اخرى. مثلاً، ابادة القبائل والشعوب من قبل المستعمرين في عصر السيطرة الاستعمارية بررها الاستغلاليون خلقياً. واليوم تشجب كل الشعوب الاستعمار كاقبح ما يكون عليه الشر الذي يجب القضاء عليه الى الابد.

وان الاخلاق في المجتمع المقسم الى طبقات ذات مصالح متضاربة تكون طبقية دائماً أي انها تخدم مصالح هذه الطبقة الاجتماعية او تلك، هذه الفئة الاجتماعية او تلك. فللكادحين اخلاقهم كما للاستغلاليين اخلاقهم. الا انه تسود في المجتمع تلك الاصول الاخلاقية التي هي مرضية ونافعة للطبقات المالكة.

وكلما سارت المجتمعات الاستغلالية شوطاً أبعد كلما جرى تشويه اكبر فاكبر للمبادئ الخلقية. وتصبح النقود هي القوة الرئيسية في هذا المجتمع. فهي التي تحيل الاخلاص الى خيانة والحب الى كراهية والكراهية الى

حب والفضيلة الى رذيلة والرذيلة الى فضيلة والعبد الى سيد والسيد الى عبد والغباء الى ذكاء والذكاء الى غباء. فالظواهر غير الانسانية من التعصب الديني والنزاع القومي والحرب الاحتلالية، كل هذا يجد تبريراً خلقياً في الآراء الاخلاقية عند البرجوازيين.

استغلال الانسان للانسان الذي يقوم عليه المجتمع البرجوازي يمثل خرقاً فاضحاً ولا افضح للاخلاق. ويتصف خلق الطبقات الاستغلالية بالمعادلة التالية: «الانسان ذئبٌ للانسان». ويؤثر الخلق البرجوازي على قسم من الكادحين. الا ان الخلق البرجوازي لا يستطيع ان يسمم وعي الشعب بأسره وقبل كل شيء وعي الطبقة العاملة. وكالعادة يتميز الناس الكادحون في الرأسمالية ايضاً بصفات خلقية رفيعة.

اسمى الاخلاق واكثرها انسانية هي الاخلاق الشيوعية. ففيها يتجسد المثل الأعلى لجميع الكادحين. الخلق الشيوعي المنبثق في احشاء الرأسمالية يتبع مصالح نضال البروليتاريا الطبقي. اما في ظل الاشتراكية فمحتواه وهدفه هوالنضال من اجل بناء الشيوعية. ويتضمن

الخلق الشيوعي كذلك الاصول الاخلاقية الاساسية الانسانية العامة التي وضعتها الجماهير الشعبية على امتداد آلاف السنين من النضال ضد الظلم الاجتماعي والنقائص الخلقية.

الاشتراكية حررت العمل. ويصبح العمل هو المقياس للفضائل الانسانية ومصدراً للارتياح الخلقي. النجاحات والانجازات في العمل تجلب البهجة.

تنبع المبادئ السامية للاخلاق الشيوعية من طبيعة النظام الاشتراكي بالذات ومن اساسه الاقتصادي الذي هو الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج. فالملكية الاجتماعية توحّد الناس وتمنحهم فرصة العيش والعمل على مبادئ الصداقة الاخوية والاحترام والتعاون المتبادلين. ومن هنا ينبع كذلك مبدأ هام من مبادئ الاخلاق الشيوعية، مثل الجماعية والتعاون الرفاقي.

وتعتبر الاخلاق الشيوعية انسان الواجب والشرف كلّ من لا يتسامح مع انتهاكات المصالح الاجتماعية ومن ينفع المجتمع ويعمل بكل السبل لدفعه الى الامام.

ينبع الاهتمام بالانسان واحترام كرامته الانسانية

مباشرة من طبيعة المجتمع الجديد ذاتها. ويكمن جوهر الانسانية الاشتراكية في الثقة والاحترام العميقين جداً للانسان الكادح. والخلق الشيوعي مناهض لكل ما يحط ويهين كرامة الانسان. هو لا يتفق والنفاق والكذب والغرور والافتراء. في الظروف المعاصرة ان تكون انسانياً حقيقياً يعني ان تعين بشكل فعال على ترسيخ سعادة الشعب.

ان حب الناس هو بالذات الذي يجعلك تكره الذين يعرضون الشغيلة للاستغلال الفظ ويضطهدون الشعوب ويهددون البشرية بفظائع الحرب.

الانسانية هي توحيد الناس بالمصالح والاهداف المشتركة. هي التضامن والتعاون بين كادحي كل الاقطار في النضال من اجل القضية المشتركة. هي صداقة شعوب العالم بأسره وتعاون المناضلين على اختلاف لون بشرتهم وعلى اختلاف لغاتهم في صف ثوري واحد.

تتطلب الاخلاق الشيوعية من الناس مراعاة قواعد التعايش الاشتراكي والاهتمام بالشيوخ والاحترام المتبادل في العائلة والسهر على تربية الاطفال. وتشترط

مبادئ الاخلاق الشيوعية خصالاً خلقية معينة لصفة الانسان: الشرف، والصدق والاستقامة الخلقية والتواضع في الحياة الشخصية والاجتماعية ومحاربة الظلم والطفيلية والدناءة والطمع والوصولية.

الا ان خصائص الانسان هذه ليست شيئاً ممنوحاً من الطبيعة. بل يجب غرسها اثناء العمل والكفاح من اجل الحياة الجديدة باشراك الناس في المعرفة وبتكوين مفاهيم علمية عن الحياة لديهم.

الفن والآراء الجمالية

حصل الانسان نتيجة تطوره التاريخي على قدرة الابداع بقوانين الجمال وعلى الاحساس جمالياً بظواهر الطبيعة المؤثرة بحسنها وبما هو رائع ودميم وبما هو مأساوي او هزلي في الحياة الاجتماعية.

العين المتربية جمالياً وحدها تستطيع التمتع بالجمال. وهذه التربية تعطيها الحياة والفن والعمل والأغنية والموسيقى والصورة والادب.

الفن عبارة عن صورة للنشاط الجمالي وشكل للوعي

الاجتماعي. ويعكس الفن الحقيقة الموضوعية ــ الحياة الاجتماعية والطبيعة موجهاً اهتمامه الرئيسي بالانسان ونشاطه وعالمه الداخلي. مملكة الحيوان والنبات، الجبال، الوديان، البحار وكذلك عالم الاشياء التي خلقها الانسان ليس لها اهمية في الفن الا بمقدار ما وحين تتكشف عن طريقها علاقة الانسان الجمالية بالعالم.

من اهم خواص الفن هو الشكل الفني المجازي لتصوير الحياة. وفي هذا تكون احدى الصفات المميزة للفن بالمقارنة الى العلم والفلسفة. تتحقق معرفة العالم علمياً وفلسفياً في المفاهيم والمقولات. ولكن البشرية لا يمكن ان تكتفي بالمعرفة العلمية للعالم وحدها. فهي تلجأ الى وسائل اخرى لفهم وتصوير الحياة، الى مثل هذه الوسائل التي تصون الوضوح المباشر للظاهرة الحياتية. وهذا الهدف يتحقق عن طريق الفن الذي من مهماته تصوير الحياة لا في المفاهيم المجرّدة بل في اشكال ملموسة.

ان هدف الفن هو تفهم الحياة وتربية صفات خلقية وجمالية معينة في الناس وتنمية الخيال الابداعي

الذي هو في منتهى الضرورة لكل اشكال نشاط الناس المادي والروحي. والفن اذ يؤثر في افكار ومخيلات واحاسيس وعاطفة الناس انما هو يلعب دوراً هاماً في حياة المجتمع.

أحسن المؤلفات الفنية التي وصل الصدق فيها الى أوجه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاجتماعية للشعوب وبالمنجزات الاجتماعية التقدمية وبنضال قوى المجتمع التقدمية ضد القوى الرجعية. هكذا غذّت الحركات التحررية الدمقراطية بعصارتها المنعشة شاعرية جوته وبايرون وميتسكيفيتش، ورسم رمبرانت ودافيد وديلكروا، وموسيقى بتهوفن وشوبين والآخرين. وقد اضفى فضح المجتمع البرجوازي مع تناقضاته الطبقية التناحرية القوة الفنية والاجتماعية على ابداع بلزاك وستندال وديكنز ودوماس. وتجسمت بقوة جبارة أماني الشعب الروسي وحبه للحرية في مؤلفات بوشكين وليرمونتوف ونيكراسوف وتولستوي وتشيخوف وغلينكا وموسورغسكي وتشايكوفسكي وريبين وسوريكوف والآخرين.

ولقد دخل ويدخل الآن الفن التقدمي المعبر عن

المثل العليا للقوى الاجتماعية التقدمية ومصالح الشعب المضطهد في معركة مع المصالح الانانية للطبقات الاستغلالية. وتحاول الطبقات المسيطرة بكل القوى اخضاع الفن لمصالحها واجباره على التنصل من التصوير الحقيقي للحياة. وظهرت حالة الفن في وضع صعب جداً خاصة في عهد الامبريالية. وقد وصل الفن الصادق الواقعي في نقده للنمط الرأسمالي للحياة الى جدّة وسطوع بالغين. الا ان الفن البرجوازي المعاصر بصورة عامة يعاني أزمة عميقة.

وبالذات لأن محتوى الفن البرجوازي المعاصر ضحل ورجعي فهو في غالبيته يصل الى انحطاط مفجع في الشكل والى رفض تام له. ولا تستطيع ان تؤدي الانفرادية البرجوازية وتذوق التشويهات من كل نوع ورفض حقيقة الحياة بالفن الا الى ما أدت اليه. ففي تلطيخ الالوان وتشويش الخطوط وفي القرقعة الوحشية وعواء ونباح «الموسيقى» تظهر الصفة المميزة للفن الشكلي وما يسمى بالفن التجريدي. التجريدية في الفن ليست شيئاً آخر غير تخريب الفن

وهي تعكس الاتجاهات الرجعية في تطور الثقافة البرجوازية المعاصرة وتدهورها.

وقد تحرر الفن مع ظهور المجتمع الاشتراكي من ظلم الطبقات الاستغلالية. وحصل على امكانيات واسعة لنموه. الفن الاشتراكي اذ يهتدي بمبادئ اكثر عقائد العصر تقدمية وهي الماركسية - اللينينية، يخدم مصالح الشعب ويعبر عن أروع مثل البشرية الكادحة، عن مثل الحياة الجديدة.

ان المطلب الجمالي الاعلى للفن الواقعي هو اظهار حقيقة الحياة. وبالتالي فان الواقعية في الفن هي التصوير الفني الصادق للحياة وتصوير في اشكال فنية لا ما هو عابر بل ما هو عامّ واساسي. ولكن الواقعية الاشتراكية هي واقعية من نوع خاص. فقد كان للواقعية في الماضي غالباً طابع انتقادي. وهذا كان امراً طبيعياً: فالفنانون الكبار الذين عاشوا في ظروف النظام الاستغلالي فضحوا الظلم والاضطهاد اللذين سادا في المجتمع. وكان واجبهم الرئيسي في هدم العالم القديم. ولا شك في انهم قد اظهروا كذلك براعم العالم الجديد

ولكن مركز الثقل مع ذلك كان في الانتقاد وفي فضح العالم المحتضر.

الواقعية الاشتراكية هي ايضاً انتقادية وثورية ومعادية لكل ما هو بال. الا ان فيها في المحل الاول تبرز الناحية الانشائية ألَّا وهي الكشف عن ميزات وثروات هذا الجديد الذي يخلقه الشعب.

الواقعية الاشتراكية هي اسلوب فني يكون في القدرة على تثمين الحاضر من مواقع المستقبل وملاحظة اقامة هذا المستقبل والجديد في الواقع المحيط بنا وتصويرهُ في شكل فني. والواقعية الاشتراكية اذ تظهر الحاضر تدعو الى المستقبل وتكشف عن الآفاق العظيمة لبناء العالم الجديد. الواقعية الاشتراكية تمجد بهجة العمل الخلاق الذي تحرر من الاستغلال وتعظم انسان العمل وتحارب كل ما يعيق القضية الكبرى، قضية بناء الاشتراكية والشيوعية. يمتد طريق عريض واضح امام فن الشعوب المتحررة من العبودية الاستعمارية. والدول الفتية اذ تضع الفن في خدمة الشعب تساهم بقسطها الثقافي في التطور الفني للبشرية.

العلم هو منظومة المعارف عن الطبيعة والمجتمع والفكر. والعلم يعكس العالم في مفاهيم وقوانين تُمتحن صحتها في التجربة الاجتماعية. قوة العلم هي في استناده الى الحقائق وفي تعميماته وفي كونه يجد وراء ما هو عرضي وفردي ما هو ضروري وطبيعي، وعلى هذا الاساس يعطي تنبؤه الذي له اهمية عملية كبيرة.

قد انبثق العلم من التجربة ويتطور على اساسها. ومتطلبات الانتاج المادي هي المحرك الرئيسي لتطور العلم.

العلم بطبيعته ذاتها مدعو الى تيسير عمل وحياة الناس وتعزيز سيطرتهم على الطبيعة واطلاع الناس على السبل الواقعية لتحسين النظم الاجتماعية. والعلماء التقدميون فهموا دائماً خدمة العلم كخدمة لشعبهم والبشرية جمعاء. العلم يوسع افق الانسان ويجنبه الخرافات والاباطيل ويعين على تكوين المفهوم المادي عن الحياة.

يرتبط العلم ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة التي هي احد اشكال الوعي الاجتماعي. واعلى مستوى لتطور فكرة العصر الفلسفية هو المادية الديالكتيكية والتاريخية وهما العلم الخاص عن القوانين العامة لتطور الطبيعة والمجتمع والفكر.

جاءت السنوات العشر الاخيرة بتقدم هائل للعلوم الطبيعية: اكتشاف مصادر جديدة للطاقة الرخيصة وصنع مواد مركبة ذات خصائص متنوعة جداً واقامة وسائط جديدة للمواصلات وغير ذلك. وقد هيأت المكاسب العلمية ثورة تكنيكية. وانفتحت امام البشرية امكانيات حقيقية لاعادة تنظيم جذري لقوى المجتمع الانتاجية وتسهيل الجهد الانساني ورفع انتاجيته بمعونة «السبيرنيتيك». ولكن هل جلبت هذه المعارف السعادة لكل الناس وهل قضى العلم على العوز والفاقة؟ مع الأسف لم يحصل هذا. فالرأسمالية المعاصرة تشل القوى الجبارة التي تكمن في اعماق المجتمع وفي العلم والتكنيك المعاصرين. فالعلوم الطبيعية اذن لا تعزز بحد ذاتها سلطة الانسان على الطبيعة. ويتحدد مدى تأثير الانسان

على الطبيعة لا بمستوى تطور قوى الانتاج بحد ذاتها وحسب ولا بدرجة تطور العلم والتكنيك وحسب بل وبنوعية النظام الاجتماعي.

بالاضافة الى ذلك فان التطور الوحيد الجانب للعلوم الطبيعية والتكنيك في حدود العلاقات الانتاجية الرأسمالية أدى الى ان يخيم على الانسان الظل الرهيب للحرب النووية.

الا انه لا ذنب للعلم في ان مكاسبه يمكن ان تستخدم ضد البشرية. المذنبون هم اولئك الذين يستخدمونها بهذا الشكل.

يرتبط تطور العلوم الطبيعية والتكنيك بمنجزات علم البلدان الاشتراكية وعلم الأقطار الرأسمالية. هنا يجري سباق في مجال العلم مما لا يستبعد الانتفاع المتبادل بنتائج البحوث العلمية. اما الدين فهو يعتبر الاشكال المختلقة للأله والشيطان والملائكة وما شاكل ذلك اشياء واقعية. العلامة المشتركة لكل الاديان هي الاعتقاد بما فوق الطبيعة.

فكيف حصل ان الناس اصبحوا يعتقدون بما فوق الطبيعة؟ ولم صدقوا بما هو ليس بموجود اطلاقاً؟

كان ظهور الاعتقاد بما هو فوق الطبيعة تعبيراً لعجز الانسان البدائي. كانت حياة الناس البدائيين ترتبط بشكل كلي تقريباً بقوى الطبيعة الفطرية. لم يستطع الناس آنذاك ان يفسروا بصورة صحيحة ظواهر طبيعية كالرعد والبرق والمطر ومد وجزر البحار والطوفان والهزات الارضية وثورات البراكين والامراض وموت الناس واحلامهم. واشتدت الحاجة الى تفهم هذه الظواهر وكثير غيرها بينما كانت امكانيات المعرفة محدودة جداً. وخلع الناس على قوى الطبيعة الاعتيادية وعلى الناس صفات لا أرضية وفوق الطبيعية. وفي الوقت ذاته ظهرت العبادة الدينية: مجموعة الشعائر الدينية والصلوات والادعية والاضاحي وما شاكل ذلك.

ولم يكن لمصادر العقائد الدينية مكان في المجتمع البدائي وحسب فهي كانت بعد ذلك ايضاً وهي موجودة الآن في المجتمع الرأسمالي.

الضغط الاجتماعي على جماهير الكادحين و«الرعب امام قوة رأس المال العمياء التي هي عمياء لان جماهير الشعب لا تستطيع تداركها والتي تهدد البروليتاري ورب العمل الصغير في كل خطوة في حياتهما بانها تجلب وتجلب فعلاً الافلاس «المفاجئ» «غير المتوقع» «العرضي» والموت والانحدار الى بائس... الى فاجرة والموت جوعاً ـ هذا هو جذر الدين الحديث الذي يجب ان يحسب حسابه الانسانُ المادي قبل كل شيء واكثر من كل شيء...»*.

حاول الكادحون ان يجدوا في الدين انقاذاً من المآسي والآلام الكبيرة التي يسببها لهم المجتمع الاستغلالي. ويلد التهديد بالبطالة والاملاق والحرب النووية الشلك والقلق في اليوم المقبل. والناس اذ لا يجدون مخرجاً واقعياً من التناقضات الاجتماعية للمجتمع الرأسمالي يلجؤون غالباً الى الدين الذي هو، كما يخيل لهم، قادر على منحهم الهدوء النفسي من كل الهموم.

---

* لينين. المؤلفات. الطبعة الروسية، المجلد ١٥، ص ٣٧٥.

الدين بجوهره نفسه غريب عن العلم ولا يجمعه به جامع: فالدين ليس معرفة تؤكد قوة الانسان وسلطته على الطبيعة بل ايمان اعمى مرتبط دائماً وقبل كل شيء بالاحساس بالفزع: الايمان لا يبرهَن عليه وانما يحس فقط.

الدين لا يخاطب لا عقل الانسان ولا التجربة ولا الحياة بل يخاطب العواطف. الدين يهيج بشكل اصطناعي العواطف ويعلّل الناس بنعيم الآخرة او يتوعدهم بالعقاب واللعنة وباهوال الجحيم ونارها وعذابها وما شاكل. وهو اذ ينبه في الناس الخوف الاعمى والامل بالخلود يدعوهم الى الاستسلام للقدر.

ويرتبط الجانب العاطفي من الدين بوثوق بعنصره الآخر الذي هو العبادة الدينية. ونظام الشعائر المعينة التي يقوم بها الناس المؤمنون بقصد التأثير في مواد ما فوق الطبيعة، موجود في كل دين ويلعب فيه دوراً هاماً فوق العادة. وان الشعائر الدينية اذ تصبح عادة، تزج بالناس في أسر الدين. وهي تنعش وتقوي دائماً التخيلات الدينية وتعزز سيل تلك الامزجة المعتمة المبهمة المرتبطة بالعقائد الدينية.

في المجتمع الاشتراكي تجتذ الاصول الاجتماعية للدين. ومع انهيار الرأسمالية فيه زال الضغط الاجتماعي على الكادحين واستغلال الانسان للانسان، ولكن تبقى العقائد الدينية في اذهان قسم من اعضاء المجتمع. ويوجد الدين في البلدان الاشتراكية كرواسب من القرون الماضية. وبما انه ما يزال بعد مؤمنون فالتنظيمات الكنسية موجودة وهناك رجال الدين لمختلف الطوائف الدينية.

وتصرح دساتير البلدان الاشتراكية عن حرية الضمير وتضمنها. وهذا يعني السماح بحرية الاديان وبحرية القيام بالدعاية العلمية الالحادية وتربية الناس الحادياً. المخلفات الدينية والوانها موجودة ولكنها ليست أبدية. فهي ستختفي في المستقبل من اذهان الناس. وحسنٌ ما قاله ماركس عن الدين بانه هو الطموح الى سعادة وهمية ذلك الطموح الذي ينبع من النظام الاجتماعي المفتقر الى الوهم. ولكنه سيختفي حالما تعلم الجماهير السعادة الحقيقية وامكانية تحقيقها.

الفصل الثامن

ما هو التقدم الاجتماعي

بقدر ما تتفاقم حدة التناقضات الداخلية والخارجية للرأسمالية تصبح تنبؤات ايديولوجييها اكثر شؤماً. وتزداد اتساعاً محاولات اثبات ان العصر الحديث هو عصر فناء المدنية. وان اراء ممثلي العالم البرجوازي مفعمة بالتشاؤم العميق. فهم يفهمون ان العالم البرجوازي بلغ حد التدهور وانه يتفسخ ومحكوم عليه بالهلاك.

وسعى مفكرو البرجوازية وراء تجريد الناس فكرياً وشل طموحهم الى التحويل الاجتماعي بافكار كاذبة عن فناء البشرية المحتوم وحتى فناء الارض عموماً. فما قيمة النضال والتطلع الى المستقبل الافضل والاهتمام بمصائر الاجيال المقبلة اذا كان الناس، اهالي الارض، رغم كل شيء سيهلكون بسبب تصادم الأجرام السماوية أو نفاد الطاقة الشمسية هذا اذا لم يقضوا بانفسهم على انفسهم بالقنابل الذرية.

واحد الاساليب الرئيسية للتأثير الايديولوجي التي يستخدمها الرجعيون هو اشاعة الشك في احتمال المستقبل الافضل والتخويف بالمستقبل الذي يرسمونه بالوان قاتمة. وهم يقومون بهذا بقصد تزويق الحاضر المزري وحمل الناس على الاستسلام ومجاراة ما هو واقع.

تعاني الرأسمالية مرحلة انحطاطها. فهي عقبة في طريق التطور الاجتماعي. وهكذا يُظهر مفكروها انحطاط طبقتهم بمظهر انحطاط المجتمع كله. غير أنه من الواضح للجميع انه لا يحق لأحد مهما كان نسبة مصير الرأسمالية الى المجتمع كله. ويكثر علماء الاجتماع البرجوازيون من الكلام عن «ازمة الوعي» وعن «كارثة العقل» وعن «انعدام الايمان والبرنامج». وتناسب مفكري البرجوازية المعاصرة تماماً كلمات تاليران التي قالها بخصوص آل بوربون: «ماذا تصنع بهؤلاء: لقد وضعت الطبيعة العيون لدى كل الناس من الامام لكي ينظروا الى امام واما لدى آل بوربون فانها تقع من الخلف فهم ينظرون الى وراء».

ولا ينكر بعض المفكرين البرجوازيين المعاصرين

التقدم التاريخي ولكنهم يتناولون معالجته من مواقف مثالية. فهم يعرفون بالتقدم في الوعي وفي النظريات ولكنهم ينكرونه في الظروف المادية لحياة المجتمع. وبالطبع فان هناك كثيراً من المفكرين البرجوازيين الذين يحاولون تعليل انفسهم والآخرين والنفخ في رماد الثقة بالرأسمالية.

الى جانب انبياء تدهور وفناء المدنية تظهر اسطورة الرأسمالية «المزدهرة»، كما لو انها لا تعرف الخصومات الاجتماعية وتحقق العدالة وحرية الذاتية في ظروف المشاريع الخاصة. ولكن كل هذه المذاهب لا تقوم على اساس. وهي مخترعة بقصد تخدير وعي الجماهير الشعبية.

وكما ترينا تجربة التاريخ في القرن العشرين يقع طريق التقدم الاجتماعي للبلدان المتحررة في الانتعاش الوطني وفي انتقال بعضها من التشكيلات ما قبل الرأسمالية الى الاشتراكية. ولا شك في ان الاقطار المتطورة ايضاً سترفض آخر الامر الرأسمالية وتصل الى الاشتراكية.

طريق طويل وشائك ذلك الذي مرت به البشرية من حياة القطيع البدائي حتى بناء المجتمع الشيوعي على نطاق واسع، من الفأس الحجرية حتى استخدام الطاقة الذرية والاتمتة، من المرعى حول النار والكوخ الى المدن الحديثة الضخمة، من التجمعات المتوحشة المتسكعة حتى الامم العظيمة، من المعارف البسيطة الملتصقة بالخزعبلات الاسطورية حتى التوغل العميق في اسرار الكون. الا ان البشرية بعثرت غير قليل من العقل والقوى العضلية على دروب مضلة. وجرى على «خشبة» التاريخ تمثيل كثرة من المشاهد العظيمة والتافهة، البطولية والمشينة. وفي الحروب الدامية كدس الناس جبالاً من الجثث البشرية. فقط خلال ستة آلاف سنة من التاريخ قامت على الارض اربعة عشر ألف حرب التي ذهبت بحياة ثلاثة مليارات وستين مليون من البشر. وهذا اكثر بكثير من عدد الناس الساكنين الآن على كل الكرة الارضية. وقد سجل المؤرخون خلال

٣٦٠٠ سنة اخيرة ٢٩٢ عام سلام فقط. وهُدم في مدة شهور أو أيام وحتى ساعات ما صنع في عشرات السنين ومئات السنين.

ظهرت في التاريخ دول قوية وازدهرت امبرا طوريات ضخمة ثم فنت. من الدول الكبيرة اصبحت صغيرة ومن الغنية اصبحت فقيرة. كل تاريخ المجتمعات المتناحرة هو سلسلة متصلة من النضال العنيف بين الطبقات المتضادة: ناضل الرقيق ضد مالكي العبيد والفلاحون الاقنان ضد الاقطاعيين والملاكين العقاريين وناضل العمال ضد الرأسماليين. واحترقت في نار الثورات الاجتماعية سلطة بعض الطبقات وولدت سلطة طبقات اخرى. تحطمت وانهدمت العروش القيصرية والملكية وانتزعت عن الرؤوس التيجان وكثيراً ما طارت الرؤوس نفسها عن الاكتاف. في الصراع بين القوى الاجتماعية المتضاربة، بين القديم والجديد، بين الفتي والشائخ، سارت البشرية دائماً وتسير الى الامام. ومع كل سنة تصبح وتيرات التقدم الاجتماعي اكثر سرعة ويصبح الزمن التاريخي

مشدّداً اكثر ومفعماً اكثر. ان التقدم الاجتماعي هو واقع لا جدال فيه ومتعدد الجوانب ومملوء بالتناقضات الداخلية. والتاريخ يعرف لا توقفات الاستمرارية وحسب بل وكوارث مفجعة تؤدي الى فناء حضارات كاملة، كما جرى هذا مثلاً لثقافة مايا أو لامبراطورية مالي التي وجدت بين السنغال ونيجريا من القرن الثالث عشر الى السابع عشر. جرى في التاريخ ويجري الآن كثير مما هو مشرق أو كئيب مما هو نبيل أو مقيت.

لا يجوز بحث التقدم الاجتماعي بشكل مجرد. فهو ليس هدفاً ذاتياً أو مبهماً لتطور البشرية التاريخي. يجري تطور المجتمع بقوانين تختلف عن قوانين الارتقاء البيولوجي. ومن شروط قدرة التشكيلات الاجتماعية على البقاء هو استكمال النظام الاقتصادي. فلقوى الانتاج ميل لا يقاوم نحو التطور. والحاجات البشرية تحث الناس بالحاح على تطوير وسائل الانتاج. ولكن تطور قوى الانتاج، وقبل كل شيء التقدم التكنيكي الذي يتحقق في حدود هذه العلاقات الانتاجية أو تلك، يؤدي بمرور الزمن الى ان تصبح العلاقات التي

تكونت فيما مضى، ضيقة وتعيق تطور القوى الانتاجية للمجتمع. والثورات الاجتماعية تكنس العلاقات القديمة وتقيم علاقات انتاجية أخرى وتفتح الآفاق الجديدة لتقدم القوى الانتاجية. في هذا يكمن السبب الاساسي للتقدم التاريخي. فما هو اذن مقياس (ميزان) التقدم الاجتماعي؟

لا يندر ان يجري البحث عن مقياس التقدم في حقل العلاقات الاخلاقية: هل ازداد مجمل السعادة البشرية؟ والبعض يحاول ان يضع في اساس التقدم تطور العلم والفن والثقافة.

حقاً من الممكن ان يظهر التقدم في كل أو تقريباً في كل مجالات الحياة الاجتماعية: في الصحة أو في تحسين ظروف المعيشة أو في تكامل اللغة وما شاكل ذلك.

ولكن للحكم على تطور المجتمع بكامله الى الامام وليس تطور جوانبه المنفردة لا بد من مقياس ما معين. فمثل هذا المقياس هو قبل كل شيء مستوى تطور القوى الانتاجية في وحدة مع العلاقات الانتاجية.

ان التشكيلة الاجتماعية الاكثر تقدماً هي تلك التي تفتح افاقاً جديدة لتطور القوى الانتاجية وترفعها الى مستوى اعلى وتضمن وتيرات اكثر سرعة لنموها. ونحن نعرف ان على مستوى تطور القوى الانتاجية تتوقف في نهاية الامر كل الجوانب الأخرى للحياة الأجتماعية بما فيها مستوى الثقافة الروحية كذلك. الا ان مستوى تطور القوى الانتاجية لا يمكن ان يكون مقياساً كافياً للتقدم التاريخي الا في وحدة مع نظام العلاقات الانتاجية المناسب: الامكانية التي يحرزها المجتمع لانتاج القيم المادية والروحية لا تنطبق دائماً على ما ينتجه المجتمع فعلاً وعلى نسبة ما ينال كل اعضاء المجتمع من هذه الخيرات المنتجة.

ويرينا مستوى تطور القوى الانتاجية درجة سيادة الانسان على الطبيعة بينما تشهد صفة العلاقات الانتاجية على درجة نضج النظام الاجتماعي نفسه. ولذا فالنظام الاجتماعي التقدمي ليس الا النظام الذي يقدم للشعب خيرات مادية اكثر، ذلك النظام الذي يضع امام الشعب

امكانيات لا حدود لها للنمو الروحي، والمستقبل لمثل هذا النظام بالذات.

وبالتالي فللبحث في مقياس التقدم التاريخي يجب الانطلاق لا من مستوى تطور الانتاج وسرعة تقدمه وحسب بل كذلك من مستوى معيشة الكادحين وسرعة نمو الرفاه الشعبي. مثلاً، قد يكون مستوى الانتاج في هذا القطر الاشتراكي والرأسمالي او ذاك واحداً ولكن النتائج الاجتماعية لهذا تختلف بعد السماء عن الارض.

في تعيين افضلية هذا النظام الاجتماعي او ذاك تعود اهمية بالغة لعلاقته بالمشاكل الاجتماعية الجذرية للبشرية. ففي وقتنا تكون تلك القضاء على استغلال الانسان للانسان، وقضية السلم والحرب، ومحو النظام الاستعماري المخزي والتأخر المزمن والفقر في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية. ويكتسح تيار حركة التحرر الوطني المستعبدين الاجانب ويتحدى الدول الاستعمارية مطالباً بالعقاب العادل لسني الظلم والاجرام اللذين اقترفهما المستعمرون.

فهل يجوز اعتبارها تقدمية تلك النظم الاجتماعية

التي تعرقل حل هذه المشاكل للحياة العصرية؟ كلا بالطبع.

من حقيقة ان التقدم الاجتماعي يقوم على تطور اسلوب الانتاج ينبثق استنتاج هام وهو ان حركة المجتمع واتجاه هذه الحركة هما ضرورة تاريخية: تستطيع الشخصيات والاحزاب والطبقات الرجعية عرقلة هذه الحركة ولكنها عاجزة عن تحويل عجلة التاريخ الى الوراء. مثل هذه المحاولات، كما هو معروف، جربت اكثر من مرة، ولكنها انتهت كل مرة بالاخفاق. يريد الامبرياليون، مثلاً، ان يحجزوا الدول المتحررة بكل الوسائل في حدود الرأسمالية ولكن كل محاولاتهم محكوم عليها بالخذلان. فالشعوب لا تريد ان تكون تابعة للامبريالية. وهي تريد ان تقرر مصيرها بنفسها.

الاسراع بوتيرات التطور الاجتماعي هو اهم تعبير عن التقدم الاجتماعي. ويتبين هذا من مثال سرعة تطور بعض التشكيلات الاجتماعية: النظام المشاعي البدائي وجد لمئات آلاف السنين، الرق وجد من ٣ الى ٣,٥ ألف سنة. والاقطاع **وجد** ١,٥ ــ ٢ ألف

سنة والرأسمالية لبضع مئات من السنين. ولم تحتج الاشتراكية الا الى بضع عشرات السنين لكي تبدأ عملية تحولها الى الطور الاعلى – الشيوعية.

التقدم في ظل الاشتراكية

الانتقال الى الاشتراكية استدعى في الحياة نمطاً جديداً نوعياً من التقدم الاجتماعي. والثورة الاشتراكية بخلاف كل الثورات الاجتماعية التي حصلت سابقاً تحقق القضاء على آخر تشكيلة اجتماعية استغلالية وتحيل التاريخ الى مجرى لا حدود له من التقدم وتكامل الحياة الاجتماعية غير مصحوبين، كما حدث هذا سابقاً بالاستغلال والاضطهاد واللاانسانية.

يسير الناس المكافحون من اجل الاشتراكية كتفاً لكتف مع التاريخ، ولهذا بالذات تتحقق مطامحهم. ولا يتغير في ظل الاشتراكية طابع التقدم وحسب بل وتسرع وتيراته باطّراد. ومع الدخول في مرحلة الاشتراكية يسرع التقدم التاريخي. ويصبح التاريخ السابق كله كأنه افتتاحية لتاريخ البشرية الناضجة المفعمة بالقوة. من

الاشتراكية يبدأ تاريخ البشرية الحقيقي لان الناس في ظل الاشتراكية يبنون حياتهم بوعي وتناسق.

تفتح الاشتراكية امكانيات لا تنضب لجذب ملايين الناس الى الابداع التاريخي الواعي وتوقظ جماهير الشعب الهائلة التي سحقها الاستغلال قروناً. وبفضل هذا تسرع وتيرات التطور الاجتماعي بشكل لم يسبق له مثيل. وتُرى بوضوح افضلية الاشتراكية عند مقارنة سرعة تطور الاقطار الاشتراكية والرأسمالية. فالنظام الاشتراكي الذي ترسخ في مجموعة من الاقطار قضى على التخلف الاقتصادي والثقافي المزمن خلال مدة وجيزة جداً واخرج تلك البلدان في عداد اقطار العالم المتقدمة من حيث مستوى الانتاج والتكنيك والعلم والثقافة والصحة وغير ذلك.

واحدى الخصائص المميزة للتقدم في ظل الاشتراكية هي الانسجام والوتائر العالية لتطور جميع جوانب الحياة الاجتماعية: تطور المدينة والقرية، واناس الجهد العقلي والعضلي، والقوى الانتاجية، والثقافة الروحية، والبلدان المتقدمة والمتأخرة والخ. ودخل في طريق الاشتراكية

ثلث البشرية كلها. وتكون النظام الاشتراكي العالمي الذي يتحول الى عامل حاسم في التطور الاجتماعي.

التقدم في ظل الاشتراكية لا يعرف التوقف.

وتسير الحركة مع هذا لا على حساب بعض البلدان والشعوب بل بجبهة واحدة لكل الأمم والاقطار الاشتراكية وكذلك لكل جوانب حياة كل بلد على حدة. وهذا يؤدي الى تساوي تطور الاقطار والاقاليم المختلفة. والاقطار الأكثر تقدماً تساعد المتخلفة وتزيل بالتالي التباين الموروث من الرأسمالية لتطور الشعوب الاقتصادي والسياسي والثقافي. وتؤدي الصفة التخطيطية للاقتصاد الى اسراع كبير لوتيرات نمو القوى الانتاجية وتخلص المجتمع من خسائر كثيرة. ويعطي فعالية كبيرة كذلك تخطيط عمل البحوث العلمية والبناء الثقافي واعداد الكوادر الكفوءة وغير ذلك.

وتفتح الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج آفاقاً لا حدود لها لنمو القوى الانتاجية، وعلى هذا الاساس — لازدهار واسع للثقافة الروحية. ان سرعة واتساع التقدم

الاجتماعي بشكل لا سابق لهما يكونان واحدة من الميزات الرئيسية للنظام الاشتراكي. ولقد رأى لينين في الاشتراكية بالذات معيناً لاينضب للتقدم الاجتماعي. «... من الاشتراكية فقط تبدأ الحركة الى الامام السريعة والفعلية والجماهيرية حقيقة، باشتراك اكثرية السكان ومن بعد ــ كل السكان في كل مجالات الحياة الاجتماعية والشخصية» *.

والاهمية الكبرى في قضية ضمان تقدم البشرية تعود لتوطيد السلم على كوكبنا بلا حروب وسلاح. اذا كان تطور الانتاج في الرأسمالية غرضاً بذاته وما الانسان الا وسيلة له فان شعار الشيوعية هو: «كل شيء من اجل الانسان لما فيه خير الانسان». والشيوعية تنجز مهمة تاريخية منقذةً كل الناس من الظلم الاجتماعي ومن كل اشكال الاضطهاد والاستغلال ومن فظائع الحروب. وعليه فان انتصار الشيوعية يعني انتصار تقدم اجتماعي من اعلى طراز.

---

* لينين. المؤلفات. الطبعة الروسية. المجلد ٣٣. ص ٩٩ ــ ١٠٠

ان قرننا المعقد الزاخر بالأوضاع الحادة هو قرن البداية لتحقيق أعز احلام البشرية التقدمية حيث تتحول هذه الاحلام الى واقع في مجال الواقع الاجتماعي وفي مجال اخضاع قوى الطبيعة وفي العلم. فلدى البشرية ما يمكنها ان تفخر به. ولديها كل المبررات للتفاؤل العميق. والماركسية - اللينينية مفعمة بالثقة الأكيدة في التقدم التاريخي وفي واقعية امكانيات التحويل الجذري للمجتمع مما يضمن تطوراً متناسقاً للبشرية في طريق الرخاء والحرية والازدهار.

الخاتمة

تجري في العالم تحويلات ثورية للحياة الاجتماعية. وقد تحررت شعوب كثيرة من الظلم والاستغلال الاجتماعيين والاستعمار يين. وهي تبني حياتها على مبادئ اشتراكية جديدة او تخلق الظروف اللازمة لطريق التطور الاشتراكي. ان هذه الاقطار والشعوب واحزابها وحكوماتها تطبق بعناد افكار الماركسية ـ اللينينية او انها تبذل جهدها لتسليح شعبها بهذه الافكار لكي يعيش ويعمل على نمط جديد، بلا مستغلين وظالمين.

وتشهد الحياة نفسها وخبرة البشرية بشكل لا يدحض على ان النظرية الماركسية ـ اللينينية هي النظرية الصحيحة العلمية الوحيدة وهي الوسيلة الجبارة للتحويل الثوري للمجتمع. وتصبح واضحة اكثر فاكثر لملايين الناس في كل العالم افضلية لا جدال فيها للنظام الاشتراكي

العالمي المتطور بانطلاق على عالم الرأسمالية الذي استهلك نفسه تاريخياً.

وبهذا بالذات يفسر التأثير المتنامي اكثر فاكثر لنظرية الماركسية ـ اللينينية التي اصبحت العقل المنفذ للبشرية التقدمية.

في عالمنا اليوم يجري صراع عنيف بين الايديولوجية الشيوعية التقدمية والايديولوجية الرجعية للبرجوازية. وفي مركز هذا الصراع تقع قضايا التطور الاجتماعي وقوانين واتجاهات التقدم التاريخي.

على خط مناقض للمادية التاريخية التي ترى في تطور المجتمع عملية تتحقق بقوانين موضوعية والتي برهنت علمياً على حتمية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، يقف علم الاجتماع البرجوازي الذي ينكر طبيعية التقدم التاريخي الموضوعية والذي يغرس في اشكال مختلفة، الاراء الذاتية، المثالية في ظواهر الحياة الاجتماعية. يخدم علم الاجتماع البرجوازي المعاصر (نظرية الحياة الاجتماعية) اهداف التأكيد النظري على سيادة حفنة من الاحتكاريين على الشعب وتبرير

السياسة الرجعية للبرجوازية الامبريالية. وهو موجه ضد الفهم المادي للتاريخ وضد نظرية وتطبيق الشيوعية. وعلم الاجتماع البرجوازي عموماً متشبع بالعداء للشيوعية وبالسعي الى تزييف نظرية المادية التاريخية وتلطيخ سمعة بلدان النظام الاشتراكي وتزويق وحماية النظام الرأسمالي والنهب الاستعماري.

يقع محتوى واهداف علم الاجتماع البرجوازي المعاصر في تعارض لا يلتئم مع القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي. وهو مع كل الايديولوجية البرجوازية يعاني ازمة حادة تعكس الازمة العامة للنظام الرأسمالي. ليس للايديولوجية البرجوازية الحالية مستقبل. فهي ايديولوجية الطبقة الزائلة من مسرح التاريخ. ومن صفاتها التشاؤم العميق والفزع من المستقبل والشك في العلم وفي قوة وكفاءة الانسان وكذلك الترهب وانكار التقدم والحقد الاسود على الشيوعية وحماية نظام الاضطهاد والعبودية بالأجرة.

ليس في استطاعة علم الاجتماع البرجوازي لاسباب طبقية ولعيوب منهجية جذرية خاصة به، الاجابة عن

المسائل الآنية التي يقدمها التاريخ. وهو لا يستطيع تقديم ولا فكرة واحدة يمكن ان تسير وراءها الجماهير الواسعة.

ويضطر اعداء الماركسية في حربهم ضد نظرية الشيوعية العلمية الى تغيير التكتيك والحجج والى البحث عن حيل واساليب ديماغوجية جديدة. ويلجأ علماء الاجتماع البرجوازيون الى تزييف اكثر اناقة للموضوعات الاساسية للمادية التاريخية. ويقترح احد المفكرين المستميتين في مناهضة الشيوعية وهو الفيلسوف الاميركي سيدني هوك، «ان يمرّن الانسان مخيلته وعقله لتكوين آلات مرنة من أجل عرقلة زحف الايديولوجية الشيوعية».

ويقوم علم الاجتماع البرجوازي المعاصر كالعادة على الفهم المثالي للتاريخ. ولكن ليس كل علماء الاجتماع البرجوازيين يجهرون بصراحة بارائهم المثالية. فبعضهم يعلن بان مسألة التناقض بين الفهم المثالي والمادي للتاريخ مسألة شائخة. ان هذا السعي وراء طمس التناقضات الجذرية بين المثالية والمادية في تفسير الظواهر الاجتماعية ليس الا شكلاً متستراً لحشر المثالية في علم الاجتماع. وان علماء الاجتماع البرجوازيين،

سعياً منهم وراء تزييف المادية التاريخية – علم الاجتماع الماركسي – يحاولون تشويه الماركسية - اللينينية بوجه عام. فهم مثلاً يعارضون ببعض افكار ماركس التي صدرت عنه في مؤلفاته المبكرة حين لم يكن مذهبه قد تكون بعد بشكل نهائي، الماركسية كمذهب علمي وعقد منسجم للاراء الاقتصادية والفلسفية والاجتماعية السياسية. ويحاول اعداء الماركسية ايجاد تناقض بين اللينينية والماركسية.

ورغم الحقائق التاريخية والواقع التي تؤكد رسوخ الموضوعات الاساسية للماركسية حول قوانين تطور المجتمع الرأسمالي، يكتب مفكرو البرجوازية عن شيخوخة التحليل الماركسي للرأسمالية. وهم يصورون التغيرات التي حصلت نتيجة دخول الرأسمالية في مرحلة الامبريالية كتحول الرأسمالية الى «دولة الرفاهية العامة»، الى «الرأسمالية الشعبية»، الى «المجتمع الصناعي الاحدث» وهلم جرا. وهم يحاولون اظهار الدولة الامبريالية المعاصرة بشكل اداة لتحويل الرأسمالية الى الاشتراكية. ويصور مفكرو الرأسمالية تبعية الجهاز الحكومي المتزايدة للاحتكارات كمشاركة «المنظمات الانتاجية الشعبية»

في الادارة الحكومية. وفي الوقت نفسه يستخدم بعضهم بشكل ديماغوجي العيوب الملازمة عضوياً للديموقراطية البرجوازية ويستنتج ان الدمقراطية ليست هي أبداً الشكل الكامل من الحكم ويروج لفكرة «الدولة القوية» و«حكومة الايدي القوية» اي فكرة دكتاتورية البرجوازية السافرة اي الفاشية.

وفي الآونة الاخيرة، شاعت بشكل واسع في المطبوعات الاجتماعية البرجوازية نظريات حول الطريق الواحد لتطور الرأسمالية والاشتراكية ونظريات حول وحدة طبيعتهما الاجتماعية وبنيانهما السياسي. وكنموذج لمثل هذه النظريات الكاذبة مذهبا «العالم الواحد» و«المجتمع المصنع الواحد» اللذان يطورهما هارون (فرنسا) وروستو (الولايات المتحدة) وغيرهما.

ليست لدى علم الاجتماع البرجوازي مفاهيم علمية مضبوطة لتحليل عميق للطبيعة الاجتماعية والاقتصادية لهذا المجتمع او ذاك ولا مقياس موضوعي لوصف تطور التشكيلات الاجتماعية المختلفة. فمفهوم «المجتمع المصنّع» لا يعني الا تثميناً كمياً معيناً لتطور القوى الانتاجية، ولكنه لا يتضمن وصفاً للعلاقات

الانتاجية التي يكوّن مجموعها، كما هو معروف، النظام الاقتصادي للمجتمع. وعلى اساس مثل هذا الوصف السطحي للظواهر الاجتماعية يستعرض نظريو «المجتمع المصنع الواحد» التشكيلتين الاجتماعيتين والاقتصاديتين المتعارضتين، وهما الرأسمالية والاشتراكية، بوصفهما «مجتمعاً مصنعاً واحداً».

وقد عبر العالم الاجتماعي الفرنسي رايمون هارون بوضوح عن الدلالة الاجتماعية لمثل هذه النظريات وذلك في مؤلفه «تطور المجتمع المصنع والتنضيد الاجتماعي». فهو يكتب انه بمعونة مفهوم «المجتمع المصنع» يمكن تجنب الصعوبات التي يخلقها النزاع بين الاشتراكية والرأسمالية واعتبار «الاشتراكية والرأسمالية مظهرين لجنس واحد».

في السنوات الاخيرة ظهرت في المطبوعات الاجتماعية البرجوازية نظريات جديدة وذلك بتأثير التغيرات الاجتماعية العميقة التي حصلت في العالم المعاصر. وتنطلق هذه النظريات من الاعتراف بسير التطور التاريخي الى الامام مدافعة عن الطريق الرأسمالي للتطور كطريق

تقدمي وحيد. مثلاً ليست نظرية ما يسمى بالطريق الواحد لتطور البلدان الرأسمالية والاشتراكية الا تأكيداً على دوام ورسوخ الطريق الرأسمالي للتطور.

هكذا العالم الاجتماعي الاميركي روستو اذ يدافع عن مصالح البرجوازية الاحتكارية يعتبر الطريق الاكثر انفتاحاً هو طريق الولايات المتحدة الاميركية. وهو طبقاً لهذا يحاول البرهنة على أحقية تطور البلدان الضعيفة اقتصادياً لا في الطريق الاشتراكي بل بالطريق الرأسمالي. ولكن اسطورة روستو عن افضلية طريق التطور الرأسمالي عاجزة عن اضعاف التأثير الثوري الهائل الذي يبديه النظام الاشتراكي العالمي في وعي الشعوب المكافحة بنشاط من اجل تحررها الوطني والشعوب التي سارت في طريق التطور المستقل والمكافحة من اجل بعثها القومي والقضاء على التخلف المزمن والفقر ومن اجل نيل الاستقلال الاقتصادي والتقدم الاجتماعي.

ويدل تاريخ القرن العشرين بشكل مقنع على ان الطريق الصائب الوحيد للتطور الاجتماعي لكل الشعوب هو طريق الاشتراكية والشيوعية.

المحتويات



الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكى بولفار ٢١،
موسكو – الاتحاد السوفييتي